

والجهال واستتباعهم لهم واستجلا بهم إلى دعوتهم بذلك البلاء، ويفعل الله ما يشاء، ولا يغتر بأبيات الشريف الرضي في ذلك، وقد حصل الجواب عنها في كتاب الكشف بوجوه حسنة، وبالله التوفيق، وقد صنف الشريف القائد [أخو محسن] الدمشقي رحمه الله كتاباً في أبطال، نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفصل ذلك تفصيلاً حسناً وأطنب في ذكر أخبار اخوانهم من القرامطة لعنهم الله تعالى.

فصل

في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة

قال ابن شدّاد: واستمرت القواعد على الاستقامة وصلاح الدين كلما استولى على خزانة مال وهبها، وكلما فتح له خزائن ملك انهبها، ولا يبقى لنفسه شيئاً ، وشرع في التأهب للغزاة، وقصد بلاد العدو وتعبية الأمر لذلك وتقرير قواعده، وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة، واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه، فوصل بالعساكر إلى خدمته، وكانت غزوة عرقة، فأخذها نور الدين، ومعه ابن أخيه في المحرم سنة سبع وستين.

وقال ابن أبي طي: جمع نور الدين عساكره، وخرج إلى عرقة ونازلها، وقاتلها أياماً حتى فتحها، واحتوى على جميع ما فيها وغنم الناس غنيمة عظيمة.

قال ابن الاثير: خرجت مراكب من مصر إلى الشام، فأخذ الفرنج في اللاذقية مركبين منها مملوئين من الامتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادهم فنكثوا، فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه،

وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم بإعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمر
منها أن المركبين كانا قد دخلها ماء البحر لكسر فيهما، وكانت العادة
بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء، وكانوا كاذبين، فلم يقبل مغالطتهم،
وكان رضي الله عنه لا يهمل أمراً من أمور رعيته، فلم يردوا شيئاً، فجمع
العساكر من الشام والموصل والجزيرة، وبث السرايا في بلادهم بعضهم
نحو انطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وأخرب
ربضه، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصني صافيتا وعريمة،
فأخذها عنوة، وكذلك غيرها، ونهب وخرب وغنم المسلمون الكثير،
وعادوا إليه وهو بعرقه، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس
يجرب ويحرق وينهب، وأما الذين ساروا إلى انطاكية فإنهم فعلوا في
ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس،
فراسله الفرنج وبدلوا إعادة ما أخذوه من المركبين، ويجدد معهم الهدنة،
فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لا يعطي الجزية حتى يلطم،
فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتّي هي أحسن، فلما نهبت
بلادهم وخربت أعادوها.

قال: وكان لوالدي في المركبين تجارة مع شخصين، فلما أعادوا إلى
الناس أموالهم، لم يصل إلى كل إنسان إلا اليسير، وكان يحمل المتاع فكل
من كان اسمه عليه أو على ثوب أخذه، وكان في الناس من يأخذ ما
ليس له، وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة، وكان نصرانيا فلم يأخذ
إلا ما عليه اسمه وعلامته، فذهب من ماله ومالنا شيء كثير بهذا
السبب، وكان الذي حصل من مالنا أكثر من الذي حصل له، فلما عاد
إلينا سلم الذي لنا إلى والدي، فامتنع من أخذه وقال: خذ أنت الجميع
فإنك أحوج إليه وأنا في غنى عنه، فلم يفعل فقال: خذ النصف وأنا
النصف واجتهد به والدي فلم يفعل، فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء
الغلام معه عدّة من الأثواب السوسية وغيرها، وقال: هذا من قماشنا قد

حضر اليوم، وسبب حضوره أن إنساناً فقاعياً من أهل تبريز كان معنا في المركب، وقد أعادوا عليه ماله، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها، فلم يسهل عليه أن يردّها - يعني عليهم - و سأل عني وقد قصدني وهي معي، وحضر عندي الساعة وسلمها إليّ، وقال: قد تركت طريقي لتبراً ذمتي، فأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد، وطلب والذي الرجل وسأله أن يقيم عندنا ليسلم إليه مالا يتجر فيه، فلم يفعل، وعاد إلى بلده، قال: وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان.

فصل

في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر

قال العماد: وكان صلاح الدين واعدته نور الدين أن يجتمعوا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المحرم بالعزم بالأجزم والرأي الأحزم، فاتفق للاجتماع عائق، ولم يقدر للإتفاق قدر موافق، فلقي في تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهرا وعدة، وعاد إلى القاهرة في النصف من ربيع الأول.

قال ابن الاثير: في سنة سبع وستين أيضاً جرى ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين، وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنج، والنزول على الكرك ومحاصرته ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعاً هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رخصه لا يتأخر، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو، فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك، فوصل إليه وأقام ينتظر وصول صلاح

الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها، فعاد إليها فلم يقبل نور الدين عذره، وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوَّفوه من الاجتماع بنور الدين فحيث لم يمثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول إلى مصر، وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي، ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم، فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام ابن أخيه تقي الدين عمر، وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله، فشتهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي ومكر وكيد وعقل وقال لتقي الدين: أقعد وسبه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك أتظنّ في هؤلاء كلهم من يجبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال نجم الدين: والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لا يمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا كيف يكون غيرنا! وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك فأني حاجة به إلى المجيء يأمر بك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته، ويولي بلاده من يريد، وقال للجماعة كلهم: قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده ويفعل بنا ما يريد فتنفروا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر، ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل، قليل المعرفة تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد، جعلك أهم الأمور إليه وأولاهها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا

المجلس فسيكتبون إليه ويعرفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول: أي حاجة إلى قصدي يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بها هو أهم عنده والأيام تندرج، والله كل وقت في شأن، ففعل صلاح الدين ما أشار به والده، فلما رأى نور الدين رحمه الله الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

فصل

في الحمام

قال ابن الاثير: وفي سنة سبع وستين أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده، وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته فكانت من حدّ النوبة إلى باب همدان لا يتخللها سوى بلاد الفرنج، وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور، فيلى أن يصله الخبر، ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض، فحيثذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده وأجرى الجرايات لها ولمربيها فوجد بها راحة كبيرة، كانت الأخبار تأتيه لوقتها لأنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر، وسرحوه إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة من طائر إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانهفظت الثغور بذلك، حتى أنّ طائفة من الفرنج نازلوا ثغراً له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبس العدو، ففعلوا ذلك فظفروا والفرنج قد أمنوا لبعث نور الدين

عنهم، فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا وللبلاد.

وقال العماد: وكان نور الدين لا يقيم في المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على الثغر، وصونا من الحيف ليحمي البلاد من العدو بالسيف، وهو متشوق إلى أخبار مصر وأحوالها وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها، فرأى اتخاذ الحمام المناسب وتدريبها على الطيران لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان، وتقدم إلي بكتب منشور لأربابها وإعزاز أصحابها، وهو حينئذ بظاهر دمشق مخيم بوادي اللوان، ونحن مستظهرون في ذلك الأوان، عادون على أهل العدوان، وذلك في سابع عشر ذي القعدة من السنة، ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام فقال: « هي برائد الانباء المخصوصات بفضيلة الالهام والايحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة الابطاء، والسابقات الهوج في الاهتداء، والحاملات ملطفات الأسرار في أقرب مدة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامي والنافذات بنجح المرام بعود السهام إلى المرامي، وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعه. وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعه. وقد عم بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين في سبيل الله في اهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالة على مكائدها ومكائنها طائرة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا، وإنما الميمونة المطار، مأمونة العثار، سالمة على الأخطار، مهدية في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرة بالأوطار من الأقطار، سائرة إلى المؤمنين بنبا الكفار»

قلت: وكل هذه أوصاف حسنة وعبارات مستحسنة، وقد بلغني عن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أنه وصفها بالطف من هذه الأوصاف

وأخصر فقال: « الطيور ملائكة الملوك » يشير إلى أن نزولها على الملوك من جوّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء، مع فرط ما فيها من الأمانة لايتوهم من جهتها خيانة، فلقد أحسن فيما وصف، وأبدع فيما استنبط وأنصف، وهو بذلك أولى وأعرف، رحم الله الجميع.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قرأت نسخة سجل باسقاط المكوس بمصر، قرىء على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسة عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين رحمه الله، فهو كان الأمر وذلك المباشر، يقول فيه: « أما بعد فإننا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا في الأرض، وحسنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض، ونصبنا له من إزالة النصب عن عباده، واختارنا له من الجهاد في الله حق جهاده، وزهدنا فيه من متاع الدنيا القليل، وألمنا من محاسبة أنفسنا على النقيير والفتيل، وأولانا من شجاعة الساحة فيوما نهب ما اشتملت عليه الدواوين، ويوماً نقطع ما سقاه النيل، فالبشائر في أيامنا تترى شفعا ووترأ، والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الأخرى، والمساحات قد ملأت المسامع والمطامع، واسخطت الخيمة والصنایع، وأرضت المنبر والجامع، ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة، وأن نتجرد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونظهر منها مكاسبنا، ونصون عنها مطالبنا، ونكفي الرعية ضرهم الذي يتوجه إليهم، ونضع عنهم أصرهم

والأغلال التي كانت عليهم، ونعيدها اليوم كأمس الذهاب، ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب، ولا قلم كاتب، فاستخرنا الله وعجلنا إليه ليرضى، ورأينا فرصة أجر لا تغض عليها بصائر الأبصار ولا يغضى وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمساحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها، فسرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر براً وبحراً، مركباً وظهراً، سراً وجهراً، لا يجمل ما شدة، ولا يحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عما أورده وأصدره، ولا يستوقف في طريقه، ولا يشرق بريقه، ولا يؤخذ منه طعمه، ولا يستباح له حرمة، والذي اشتملت عليه المساحة في السنة من العين مائة ألف دينار مساحة لا يشوبها تأويل ولا يتخونها تحويل ولا يعترها زوال، ولا يعثورها انتقال، دائمة بدوام الكلمة، قائمة ما قام دين القيمة، من عارضها ردت أحكامه، ومن ناقضها نقض ذمامه، ومن أزالها زلت قدمه، ومن أحالها حل دمه، ومن تعقبها خلدت اللعنة فيه وفي عقبه، ومن احتاط لندياه فيها أحاط به الجحيم الذي هو من خطبه، فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة ولاية الأمر من صاحب سيف وقلم، ومشارف أوناظر، فليمثل ما مثل من الأمر، وليمضه على ممر الدهر، مرضياً لربه، ممضياً لما أمر به.

وفيها توفي الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي المقرئ النحوي، وهو نزيل الموصل رحمه الله تعالى، وفيها ولد العزيز والظاهر ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين، وفيها في ثالث شوال توفي أبو الفتوح نصر بن عبد الله الاسكندري المعروف بابن قلاقس الشاعر بعيذاب، ومولده بالاسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسةائة، فيكون عمره نحو من خمس وثلاثين سنة.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

ففيها توفي ملك النحاة الحسن بن صافي، وفيها ترتب العماد الكاتب مشرفاً بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الانشاء، قال: وكان نور الدين ذكياً المعيا فطنا لودعياً، لا يشتبه عليه الأحوال، ولا يتهرج عليه الرجال، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال.

قال: ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه، واستخرج دفائنه، سير منها عدّة من الأمتعة المستحسنة والآلات المثمنة، وقطع البلور واليشم والأواني التي لا يتصور وجودها في الوهم، ومعها ثلاث قطع من البلخش أكبرها نيف وثلاثون مثقالاً، والثانية ثمانية عشر، والأخرى دونها، وقرن بها من اللآلي مصونها ومكنونها، وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار، ووصلت من غرائب المصنوعات بما لا يجتمع مثله في أعصار وأعمار، ومن الطيب والعطر ما لم يخطر ببال عطار، فشكر نور الدين همته، وذكر بالكرم شميته، ووصف فضيلته وفضل صفتة، وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسدّ به خلة الإقلال، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر، وبنا إلى الذهب فقر، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر، وتمثل بقول أبي تمام
لم ينفق الذهب المربى بكثرتة
على الحصاب وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد، فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والأمداد، فاستنزه وما استغزره، واستقل المحمول في جنب ما حرره وتروى فيما يدبره، وأفكر فيما يقدمه من هذا المهم ويؤخره.

قال ابن أبي طي: لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع، وجرّد الموفق بن القيسراني وزيره إلى مصر، وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام

أخبارها وارتفاعها، وأين صرفت أموالها، فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة، وعظم على نور الدين أمر مصر وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد، وأكثر في مراسلته في حمل الأموال، حدّثني أبي قال: لم يخف حال نور الدين في كراهية الملك الناصر، ولقد علم ذلك جميع الأجناد والأمراء، وتحدّث به العوام، ولاسيما حين أنفذ هذه الهدية واشتدّ بعد ذلك في مراسلته، وأنفذ ابن القيسراني لكشف الأحوال، ولو طال عمره لم يكن له بدّ من دخول مصر.

قال العماد: وكان نور الدين مذ ملكت مصر، وتوجه له فيها النصر، يؤثر أن يقرر له فيها مال للحمل يستعين به على كلف الجهاد، وتخفيف ماله من الثقل، والأيام تماطله، والأعوام تطاوله، وهو ينتظر أن صلاح الدين يبتدي من نفسه بما يريده، وهو لا يستدعي منه ولا يستزيده، فلما حل من أخائر الذخائر والمال الحاضر ما حمله، وعرف مجمله ومفصله، تقدّم إلى الموفق خالد بن القيسراني أن يمضي ويطلب، ويقتضي ويعمل أيضا بالأعمال المصرية جزازة، ولا يبقى في نفوس ديوانه من أمرها جزازة، وأرسل معه الهدايا والتحف السنايا، وأقام العماد مقامه في ديوان الاستيفاء، فجمع بين الإشراف والاستيفاء، ومنصب الانشاء، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قال العماد: وخرج صلاح الدين في النصف من شوال ومعه الفيل

والحمارة العتابية، والذخائر النفيسة التي كان انتخبها من خزائن القصر، وهي معدودة من محاسن العصر، وقد سبق ذكر تسييرها إلى نور الدين وقوبلت بالاحسان والتحسين، ووصلت الحمارة، وكثرت لها النظارة، وأما الفيل فإنه وصل إلينا في سنة تسع وستين ونحن بحلب في الميدان الأخضر، وأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحفة الثياب والعود والعنبر، ثم سيره سيف الدين

إلى بغداد هدية للخليفة مع ما سيره معه من التحف اللطيفة، وسير نور الدين الحمار العتابية إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا.

فصل

في جهاد السلطانين للفرنج في هذه السنة

قال العماد: ونزل صلاح الدين على الكرك والشوبك وغيرها من الحصون، فبرح بها وفرق عنها عربها، وخرّب عماراتها، وشتت على أعمالها سراياه بغاراته، ووصل منه كتاب بالمثال الفاضلي: «سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه، ومدّ أبداً إحسانه، ومكن بالنصر إمكانه، وشيد بالتأييد مكانة، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه، علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقصّ أجنحتهم، ويفلّل أسلحتهم، ويقطع موادهم، ويخرّب بلادهم، وأبرّ الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقى في بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عزّ الأيمان، وما اجتهد فيه غاية الاجتهاد وعده من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل دارهم إلى أن صار العدوّ اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً.» ثم ذكر باقي الكتاب.

قال ابن شدّاد: وهذه أوّل غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية، وإنما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدوّ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة، فخرج قاصداً لها في أثناء سنة ثمان وستين، فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد

عنها، ولم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة وحصل ثواب القصد، وأما نور الدين فإنه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة، وأخذ بهسنى في ذي الحجة منها.

وقال العماد: حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق في العشرين من صفر، ووجهه بنور البشر قد سفر، والحديث يجري في طيب دمشق وحسن آلائها، ورقة هوائها، وبهجة بهائها، وإزهار أرضها كزهر سمائها، وكل منا يمدحها وبجبه يمنحها، وكل منا يطربها، فقال نور الدين أنا حب الجهاد يسليني عنها، فما أرغب فيها، فارتجلت هذا المعنى في الحال فقلت:

ليس في الدنيا جميعا
بلدة مثل دمشق
ويسليني عنها
في سبيل الله عشق
والتقى الأصل ومن
يتركها يشقى ويشقى
كم رشيق شاغل عن
بهسهم الغزور شقى
وامتساق البيض يغني
عنه بالأقلام مشقى

قال: وسألني نور الدين أن أعمل دوبيات في معنى الجهاد على لسانه

فقلت:

للغزور نشاطي وإليه طربي
مالي في العيش غيره ممن أرب
بالجهد وبالجهاد نجح الطلب
والراحة مستودعة في التعب

وقلت أيضا:

لأراحة في العيش سوى أن أغز
وسيفي طربا إلى الطلي يهتز

في ذل ذوي الكفر يركون العز
والقدرة في غير جهاد عجز

وقلت أيضا:

أقسمت سوى الجهاد مالي أرب
والراحة في سواه عندي تعب
إلا بالجد لا ينال الطلب
والعيش بلا جد جهاد لعب

قال: واتفق خروج كلب الروم اللعين في جنود الشياطين بقصد الغارة على زرا من ناحية حوران وهم في جمع غلبت كثرته الخبر والعيان، ونزلوا في قرية تعرف بسمسكين (١٢٥) ، فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة إليهم ، وأقدم بعساكره عليهم، فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوار ثم إلى السويداء ثم نزلوا بالشلالة، ونزل نور الدين في عشترا، وقد سره ما جرى، فأنفذ سرية إلى أعمال طبرية، واغتتم خلوها، فأدجت تلك الليلة وحدثت في شن الغارة غدوها، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة، فوقف الشجعان، وثبت من ثبته الايمان، حتى عبرت السرية، وانفصلت تلك القضية، ورحل نور الدين من عشترا، فنزل بظاهر زرا، قال العماد:

وكنت راكبا في لقائهم مع الملك العادل، وهو يقول لي: كيف تصف ما جرى، فمدحته بقصيدة

عقدت بنصرك أمانة الايمان

وبدت لعصرك آية الاحسان

يا غالب الغلب الملوك وصائد الـ
صيد الليوث وفارس الفرسان
ياسالب التيجان من أربابها
حزت الفخار على ذوي التيجان
محمود المحمود ما بين السورى
في كل اقليم بكم كل لسان
يا واحد في الفضل غير مشارك
أقسمت مالك في البسيطة ثاني
أحلى أمانيك الجهاد وإنه
لك مؤذن أبدا بكل أمان
كم بكر فتح أولدته ظباك من
حرب لقمع المشركين عوان
كم وقعة لك بالفرنج حديثها
قد سار في الأفق والبلدان
قمصت قومصهم رداء من ردى
وقرنت رأس برنسههم بسنان
وملكت رق ملوكهم وتركتهم
بالذل في الأقياد والأشجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم
وسحبتهم هوناً على الأذقان
إذ في السوابغ تحطم السمر القنا
وعلى غنماء المشرفة في الطلى
والهام رقصص عوالي المران
وكان بين النقع لمع حديدها
نارتألق من خلال دخان
في مازق ورد السورى دمكفل
فيه برى الصارم الظمان

غطى العجاج به نجوم سماءه
لتنوب عنها أنجم الخرصان
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا
طرق الضلال ومركب الطغيان
يا خيبة الإفرنج حين تجمعوا
في حيرة وأتوا إلى حوران

ومنها:

وجلوت نور الدين ظلمة كفرهم
لما أتيت بواضح البرهان
وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم
والرأي قبل شجاعة الشجعان
أصبحت للاسلام ركناً ثابتاً
والكفر منك مضعع الأركان
قوّضت أساس الضلال بعزمك الـ
ماضي وشدت مباني الايمان
قال أين مثلك في الملوك مجاهد
الله في سرّ وفي اعلان
لم تلقهم ثقة بقوة شوكة
لكون وثقت بنصرة الرحمن
ما زال عزمك مستقلاً بالذي
لا يستقل بثقله الثقلان
وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ
ما كان في وسع ولا إمكان
دانته لك الدنيا فقاصبيها إذا
حققت له لنفاذاً أمرك داني
فمن العراق إلى الشام إلى ذرا
مصر إلى قوص إلى أسوان

لم تله عن باقي البلاد وإنما
الهالك فمرض الغزوة عن همدان
للروم والأفرنج منك مصائب
بالترك والأكراد والعربان
اذعننت لله المهيم من اذعننت
لك أوجه الاملاك بالاذعان
أنت الذي دون الملوك وجدته
ملاّن من عرف ومن عرفان
في بأس عمرو في بسالة حيدر
في نطق قس في تقى سلمان
سير لو أنّ الوحي ينزل أنزلت
في شأنها سور من القرآن
فاسلم طويل العمر ممتدّ المدى
صيا في الحياة مخلص السلطان

وهي قصيدة طويلة وصف فيها امراءه الحاضرين الجهاد معه
ومدحهم.

فصل

في فتح بلاد النوبة

قال العماد: وفي جمادى الأولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين بلاد النوبة وأراهم سطاه المرهوبة، وفتح حصنا لهم يعرف بابريم، وكان لايريم، وهي بلاد عديمة الجدوى، عظيمة البلوى، ثم رجع بالسبي وعاد به إلى أسوان، وفرق على أصحابه في الغنائم السودان.

وقال ابن أبي طيّ الحلبى: وفيها اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة، وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر، وصاروا إلى أعمال الصعيد وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها وكان بها الأمير كنز الدولة، فأنفذ يعلم الملك الناصر، وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكي، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخرجوا أرضها، فاتبعهم الشجاع والكنز فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم، ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال العبيد، وتمكنهم من بلاد الصعيد، فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة فسار قاصد بلادهم وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرة، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبة، وسار إليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ما كان فيها من المال والكرع والميرة، وخلص جماعة من الأسرى وأسر من وجده فيها، وهرب صاحبها، وكتب إلى السلطان بذلك، فأنشد السلطان أبو الحسن بن الذروي يهنيه بفتح ابريم قسيده منها:

فقدّم العزم فذامبتداه

يقصر عن ملك الأرض منتهاه

واسحب ذيول الجيش حتى ترى
أنجمه طالعته عن دجاه
سواك من ألقى عصاه بها
قناعه لما استقرت نواه
عليك بالروم ودع صاحب التا
ج إذا شئت وتورا نشاه
فقد غمدت ابريم في ملكه
تبرم أمرا فيه كبت العداه
لابد للنوبة من نوبة
ترضى لسخط الكفر دين الاله
تظل من نوبة منسوبة
لعزيمة كامنة في أنساه
تكسو الغزاة القاطني أرضها
مانسجت للحرب أيدي الغزاه
سودو تحمر الظبأحواها
كأعين الرمد بدت للأساه
أولافسمر يحميها القنا
مثل دنان بزلتها السقاها
لله جيش منك لا يثنى
إلا بنصل دميت شفرتاه
ما بين عقبان ولكنها
خيل وفرسان كمثل البزاه
أساد حرب فوق أيديهم
أساور الطعن فهم كالحواه
تقلدوا الأنهار واستلاموا الاله
غدران فالنيران تجري مياه

قال: ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص، وكان في صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردي فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم

فاقطعه إياها، وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين، فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقا، وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة، حتى برحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم، واتفق أنهم عدواً إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة دندان، فغرق أميرهم ابراهيم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي منهم إلى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النوبة إليها وملكوها، وأنفذ ملك النوبة رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص، ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية عبد وجارية، فكتب له جواب كتاب فأعطاه زوجي نشاب وقال: مالك عندي جواب إلا هذا، وجهز معه رسولاً يعرف بمسه ود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنقلة وهي مدينة الملك، قال مسعود: فوجدت بلاداً ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار منه أدامهم، ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال: خرج علينا يوماً وهو عريان قد ركب فرسا عريا، وقد التف في ثوب أطلس، وهو أقرع ليس على رأسه شعر، قال: فأتيت فسلمت عليه، فضحك وتغاشى وأمر بي أن تكوى يدي، فكوى عليها هيئة صليب، وأمر لي بقدر خمسين رطلا من الدقيق، ثم صرفني، قال: وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط، وباقيها اخصاص.

فصل

في وفاة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وطرف من أخباره

قال العماد: وركب نجم الدين أيوب فشب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط المحجة، يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليماً، وبابه مزدحم الوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود، وكان ولده صلاح الدين عنه غائباً، وفي بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية، ثم نقل بعد سنتين إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام والإجلال والإعظام وعلى آله وصحبه وسلم.

قلت: وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل المقدم ذكره، رحمهم الله.

قال القاضي ابن شداد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين، فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس رحمه الله، وكان شديد الركض ولعباً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تربه، ما عظمت به اللوعة، واشتدت الروعة، وتضاعفت لغيبتنا عن

مشهده الحسره، فاستنجدنا بالصبر فأبى، وانحدرت العبره، فيا له فقيداً،
فقد عليه العزاء، وهانت بعده الأرزاء، وانتشر شمل البركة بفقده فهي
بعد الاجتماع أجزاء:

وتخطفته يد الردى في غيبي
هبنى حضرت فكنت ماذا أصنع

قال ابن أبي طي الحلبي: هو الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي،
ولا يعرف في نسبه أكثر من والده شاذي، وحدثني أبي رحمه الله قال: كان
تقي الدين عمر يزيد فيقول: شاذي بن مروان.

قلت: وسمعت أنا من يقول: شاذي بن مروان بن يعقوب.

قال ابن أبي طي: وقد ادعى ابن سيف الاسلام لما ملك اليمن أنهم
من بني مروان بن محمد الجعدي المعروف بالحمار، يعني آخر خلفاء بني
أمية، قال: وقد نقتب عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيوب أن هذا
كذب، وأن جميع آل أيوب لا يعرفون جداً فوق شاذي، وكذلك أخبرني
السلطان الملك الناصر رحمه الله.

قلت: ودليل صحة ذلك أني وقفت على كتاب وقف الرباط النجمي
بدمشق، ولم يزد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذي العادلي،
وابن سيف الاسلام هذا هو أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين بن أيوب
ابن شاذي إن أخي السلطان صلاح الدين، ملك اليمن بعد أبيه،
وتعاضم إلى أن ولي نفسه الخلافة، وادعى أنه من بني أمية، وعزم على
اعادة الخلافة من بني هاشم إلى بني أمية، وله في ذلك أشعار كثيرة،
وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين، ومدحه كثير
من الشعراء بذلك، وزينوا له فعله وما هو فيه، فمن شعره:

وإنى أنا الهادي الخليفة والذي

أدوس رقاب الغلب بالضمير الجرد

وقد ذكر العماد الكاتب في سيرة السلجوقية الأمير نجم الدين وقرظة وأثنى عليه، وذكر من دينه وعفته، ووفور أمانته، وكثرة خيره أشياء حسنة، وحكى قضية عمه العزيز حين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدرگزيني، وأمره بقتله فأبى نجم الدين إلى أن قتله بهروز بنفسه بأمر الدرگزيني، ثم إن السلطان مسعوداً حشد وخرج في أخذ السلطنة وطمع هو وأتابك زنكي بن آق سنقر في بغداد، وجردهم عسكرياً ضخماً، وسارا إلى تكريت طامعين في بغداد واتصل الخبر بقراجه الساقى وهو أتابك ابن السلطان محمود، فجرد ألف فارس للقاء زنكي، ثم اردفهم بعسكر ضخم فانهزم زنكي وقتل جماعة من أصحابه وجملة ممن كان في عسكره، ولجأ إلى سور تكريت وبه عدّة جراحات، وعلم به الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه فمتحاه (١٢٦) إلى القلعة بحبال وداويا جراحاته وخدماه أحسن خدمة وتقرباً إليه، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً، ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهر فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر حتى أنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من امتعته، فكان زنكي يرى لأيوب هذه اليد، ويعرف له هذه الصنيعة ويواصله بالهدايا والألطفاء مدة مقامه في تكريت، فلما انفصل عنها على ما سنذكره تلقاه زنكي بالرحب والسعة، واحترمه احتراماً عظيماً وأقطعه عدّة قطائع، وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم، وكان أخوه شيركوه معه في القلعة، وكان شجاعاً باسلاً ينزل من القلعة ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته، وكان نجم الدين لا يفارق القلعة، ولا ينزل منها فاتفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه، ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلاً نصرانياً فاتفق في ذلك اليوم أن النصراني صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة، فعبث به بكلمة ممضية فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني، وصعد إلى القلعة، وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته في أمر النصراني، وأخذ النصراني

برجله فألقي من القلعة، وبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ما جرى، وحضر عنده من خوفه جراءة أسد الدين، وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا، وأنه ربها كان منها أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه، فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ما جرى من أخيه، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيره صحبة الكتاب، فأجاب نجم الدين إلى ذلك بالسمع والطاعة، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهل ومال، واجتمع هو وأخوه أسد الدين، وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل، وقيل إن أسد الدين كان خرج إلى الموصل قبل نجم الدين، وأعظم أهل تكريت خروج نجم الدين من بين أظهرهم، ولم يبق أحد إلا خرج لتوديعه، وأظهر البكاء والأسف على مفارقتة، ولما اتصل باتابك زنكي قدمها أفرجه ذلك، وأمر الموكب بلقائهما وأكرمهما إكراماً عظيماً، وأقطعها في بلد شهرزور اقطاعاً سنياً، وقيل إنه أقطع أسد الدين بياالموزر، وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنه يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأمر أخيه نجم الدين، حتى قربهما من قلب أتابك، وجعلها عنده بالمنزلة العظيمة، وخرجا معه إلى الشام وشهدا معه حروب الكفار، وقتال الفرنج لعنهم الله، وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء، والفعلة الغراء، وحدثني أبي رحمه الله قال: حدثني سعد الدولة أبو الميامن المؤملي، وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب، قال: وحدثني أيضاً بهذه الحكاية مجد الدين بن داية الملك الصالح، قال: حدثني حسام الدين سنقر غلام الأمير نجم الدين أبي طالب، وكان سنقر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، قال: كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما أنفذه نور الدين بن زنكي إلى ابنه السلطان الملك الناصر إلى مصر من أجل قطع خطبة المصريين وإقامة دعوة بني العباس في أول سنة سبع وستين وخمسةائة، واتفق أني كنت حاضراً وقد اجتمع السلطان الملك الناصر،

ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة، وقد قعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بأرباب الدولتين، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول، فبينما الناس كذلك إذ تقدّم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر، ووالده نجم الدين، والتفت إلى نجم الدين فقال له: يا مولاي هذا تأويل مقالتي لك بالأمس حين ولد هذا السلطان، فضحك نجم الدين، وقال: صدقت والله ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه، والتفت إلى الجماعة الذين حوله والقضاة والأمراء، وقال: لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أنني ليلة رزقت هذا الولد، يعني السلطان الملك الناصر، أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخي أسد الدين شيركوه رحمه الله، وقتله النصراني وكنت قد ألفت القلعة، وصارت لي كالوطن، فثقل عليّ الخروج منها والتحوّل عنها إلى غيرها، واغتممت لذلك، وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته، فتنشأمت به وتطيرت لما جرى عليّ، ولم افرح به، ولم أستبشر، وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه، وكان هذا النصراني معي كاتباً، فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن أذن له في الكلام، فأذنت له فقال لي: يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب، وبها استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله سبحانه وقدره، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً الصيت، جليل المقدار، فعطفني كلامه عليه، وها هو قد أوقفني على ما كان قاله، فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق، وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكره، قلت ولعمارة في نجم الدين مدائح ومراث منها قوله:

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم

ووجهه بدوام العزم متسم

يقول فيها:

أضحى بك النيل محجوجاً ومعتماً
كأنها حلل فيه الحل والحرم
جاءت بنوك وشمل الدين منتشر
فقار عوا عنه فهو اليوم منتظم
ومادري أحد من قبل رؤيتهم
أن الحظوظ بلكم الأرض تققسم
نامت عيون السورى في عدل سيرتهم
كأن يقظتنا في عصرهم حلم
والناصر ابنك كاف كل معضلة
إذا الحوادث لم يكشف لها غم
أعز بالأس والاحسان حوزتنا
فلم يلهم بنا خوف ولا عدم
تبسم الدست من أيوب عن ملك
تنحط عن قدره الاقدار والهمم

وقال في مرثيته:

هي الصدمة الأولى فمن بان صبره
على هول ملقاها تضاعف أجره
أذم صباح الأربعاء فانه
تبسم عن ثغر المنية فجره
أصاب الهدى في نجمه بمصيبة
تداعى سماك الجو منها ونسره
فلاتعدلونا واعذرونا فمن بكى
على فقد أيوب فقد بان عذره
أقام بأعمال الفرات وخيله
يراع بها نيل العزيز ومصره
إلى أن رماها من أخيه بضيغم
فرى نابه أهل الصليب وظفره

فلما قضى نجبي حياة ودولة
بأمرك في ادراكها تهم أمره
تعاقبتا مصر أتعاقب وإبل
بييت بقطر النيل ينهل قطره
نزلت بدار حلها فحللتها
فمغناك مغناه وقطر كقطره
وواخيتيه في البر حيا وميتا
فقبرك في دار القبر رار وقبره
وقد شخصت أهل البقيع إليكما
وإلأفسكان الحججون وحجره
هني الملك مات والعز عزه
وقد ترتته فوق الرجال وقدره
وأدرك من طول الحياة مراده
وما طال إلا في رضى الله عمره
وأسعد خلق الله من مات بعدما
رأى في بنبي ابنائه ما يسره
شهيد تلقى ربه وهو صائم
فكان على أجر الشهادة فطره
مضى وهو راض عنك لم ترم صدره
لضيق ولا جاشت من الغيظ قدره
حمى حوزة الاسلام والدين بعده
ثما نية من أجلهم عز نصره
فكيف بخيس آل أيوب أسده
لقديبان خوف الدهر منه وذعره
رعى الله نجما تعرف الشمس إنه
أبوها ونور البدر منها وزهره
وأبقى المقام الناصري فإنه
لدولتكم كنز الرجاء وذخره

وقال أيضاً:

صفوا الحياة وإن طال المدى كدر
وحادث الموت لا يقي ولا يذر
وما يزال لسان الدهر ينذرنا
لو أثرت عندنا الآيات والنذر
فلا تقل غرت الدنيا مطامعنا
فما مع الموت لا غش ولا كدر
كأس إذا ما الردي حيا الحياة بها
لم ينج من سكرها أنثى ولا ذكر
كم شامخ العز لا قى الذل من يدها
ما أضعف القدر إن ألوى به القدر
في كل جيل وعصر من وقائعها
شعواء يقطر منها الناب والظفر
أودى علي وعثمان بمخلبه
ولم يفتها أبوبكر ولا عمر
ومن أراد التأسى في مصيبتنه
فللورى برسول الله معتبر
نجم هوى من سماء الدين متكدر
والنجم من أفقه يهوي وينكدر
منظومة أنجم الجوزاء من جزع
له وعقد الثريا منه منتشر
وكيف ينسى محياه الكريم ومن
نعماه في كل عيش صالح أثر
جددت من أسبد الدين الشهيد لنا
حزنابه يتساوى الصبر والصبر
قد كان للدين والدنيا بعزمكما
ذكر يعبر عنه الصارم الذكر
إن فاح نشر كلام تمدحان به
مسكا فعترة أيوب هي العطر

تحفي ذبال مصاييح إذا طلعوا
صبحا وتنسي ملوك الأرض إن ذكروا
كـبـأنـها صـور الله الكمال بهم
شخصا ويوسف منه السمع والبصر
لاشوبك منه معصوم ولا كرك
ولا خليل ولا قدس ولا زغر
لم يرتحل قافلاً إلا وساكنها
إمام باصباح حماه أو دم هدر
مامات أيوب إلا بعد معجزة
في المجد لم يؤت ما من جنسه بشر
مضى سعيداً من الدنيا وليس له
في رتبة أرب بباقي ولا وطر
وطول الله منه باع أربعة
منها الندى والتقوى والملك والعمر
واشرف الملك ما امتدت مسافته
في صحة أخواها العقل والكبر
ومن سعادته أن مات لاسام
يشكوه منه معانيه ولا ضمير

فصل

قال: العماد وسار نور الدين قاصداً جانب الشمال لتسديد ما اختل
هناك من الأحوال، فسار إلى بعلبك، ومنها إلى حمص، ثم حلب، وفعل
في كل منها من المصالح ما وجب، وقصد بلاد قليج أرسلان ملك
الروم، ففتح مرعش في العشرين من ذي القعدة، ثم فتح بهسنى، واتبع
في كل منها الطريقة الحسنى، وكتب العماد إلى صديق له بدمشق، وكان
سافر عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن المشمش:

كتابي فديتك من مرعش
وخوف نوابها ممرعشي
ومامر في طرفها مبصر
صحيح النواظر الأعشي
وما حل في أرضها آمن
من الضيم والضرر الأخشي
ترنحني نشوات الغرا
م كأي من كأسه متشي
أسر وأعلن بريح الجوى
فقلبي يسر ودمعي يشي
بذلت مهجتي رشوة
فحاكم حاكم مرتشي
وكيف يلذ الكرى مغرم
بنار الغرام حشاه حشي
بمرعش أبغي وبلوطها
مضاهاة جلق والمشمش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة ونمى حديثها إلى نور الدين، قال: فاستنشدنيها فأنشدته إياها، ونحن سائرون في واد كبير، مع بيتين بدت بهما في الحال وهما:

وبالملك العادل استأنست
نجاحا مني كل مستوحش
ومافي الأنام كريم سوا
ه فإن كنت تنكر ذافتش

قال ابن الاثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين رحمه الله نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونيه وأقصرا، عازما على حربه، وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند،

صاحب ملطية وسيواس وغيرها من تلك البلاد قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً، وملتجئاً إلى ظله فأكرم نزله، وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك ووعدته النصر والسعى في ردّ ملكه إليه، وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة إما ليستعين بها، على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم، كما فعل بدمشق ومصر، وغيرها، فلما قصده ذو النون راسل قليج أرسلان، وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك فسار نور الدين نحوه فابتدأ بكيسون وبهسنى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها من الحصون، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها خوفاً وفرقاً، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه من الفرنج ما أزعجه فأجابته إلى الصلح، وكان في جملة رسالة نور الدين إليه: «إنني أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها أن تجدد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام، فإني لا أعتقدك مؤمناً، وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، والثاني إذا طلبت عسكرك للغزاة تسيره فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الاسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فأما أن تكون تنجدي بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وأما أن تجاهد من مجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد في جهادهم، والثالث أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي»، وذكر أموراً غيرها فلما سمع قليج أرسلان الرسالة، قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبته إلى ما طلب أنا أجدد اسلامي على يد رسوله، واستقر الصلح وعاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عيد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين، فرحل العسكر عنها وعاد قليج أرسلان ملكها.

قال العماد: وفيها وصل الفقيه الامام الكبير قطب الدين النيسابوري، وهو فقيه عصره، ونسيج وحده، فسر نور الدين به وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق، ثم أطلعه إلى دمشق فدرس بزواية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسي رحمه الله، ونزل بمدرسة الجاروق، وشرع نور الدين في انشاء مدرسة كبيرة للشافعية لفضله، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله.

قلت: هي المدرسة العادلية الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر ابن أيوب أخو صلاح الدين وفيها تربته، وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين، ومن بعده منها، وهو موضع المسجد والمحراب الآن، ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة، وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لانظير له في بنیان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قدر الله تعالى جمع هذا الكتاب، فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى.

وبقي قطب الدين إلى أن توفي في الأيام الناصرية في سنة ثمان وسبعين، وقد وقف كتبه على طلبة العلم، ونقلت بعد بناء هذه المدرسة إليها فمما فاتها ثمرته إذ فاتها مباشرته رحمه الله.

قال العماد: وكان وفد في سنة أربع وستين شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن محمد بن حمويه، فأقبل عليه نور الدين وأمرني بانشاء منشور له بمشيخة الصوفية، ورغبه في المقام بالاحسان إليه بالشام، ومن جملة ما أتخفه به عمامة بأعمدة ذهبية، كان قد أنفذه صلاح الدين من مصر، فبذل فيها ألف دينار بزنة ذهبها، فلم يجب من سامها إلى طلبها.

قلت: وقد سبق ذكر هذه العمامة في أخبار نور الدين أول الكتاب من كلام ابن الاثير وابن المعطى إياها وهو الشيخ تاج الدين عبد الله رحمهم الله.

ثم ذكر العماد نسخة المنشور وفيه: « فلينظر في رباط السمسياطي،
وقبة الطواويس، ورباط الطاحونة وغيرها من ربط الصوفية بدمشق
المعمورة وبعليك، ثم ذكر العماد أنه في آخر شعبان من هذه السنة قبل
الرحيل من دمشق كان أهدى إلى صديقه الفاضل الأديب علم الدين
الحسن بن سعيد الشاتاني قطائف وكتب إليه:

مـ ا ر ا ق د ا ت فـ ي ص ح ر و ن
م س ت و ط ن ا ت فـ ي س ك و ن
أ و ك الع ق ا ل فـ ي الخ د و
ر ق د ا ع ت ق ل ن ع لـ ي د ي و ن
أ و ك الت ه ا ئ م ل ل ص ح ر ا
ف و م ا ن س ب ن إ لـ ي ج ن و ن
ص ر ع ي و م ا د ا م ت ل ه ا
ي و م ا ر ح ي الخ ر ب الـ ز ب و ن
ي ح ي ن بـ ا ل ت غ ر ي ق ب ل
ي س م ن فـ ي ض ي ق الـ س ج و ن
ن ض د ن بـ a ل ت ر ص ي ع فـ ي الـ
ج ا م ا ت ك الـ د ر الم ص و ن
و ق د ا ش ت م ل ن م ن الل ط ا
ث ف و الـ ص ف ا ت ع لـ ي ف ن و ن
ي ج لـ ي أ م ش ا ل الع ر ا
ث س ب ي ن أ ب ك ا ر و ع ي و ن
ه ن الل ذ ي ذ ا ت الل و ا
ت ذ ب الـ س ه و ل م ن الخ ز و ن
الـ س ك ر ي ا ت الغ ر ي
ع ق ا ت الغ ل ا ئ ل و الش و ن
ل ل ف ن فـ ي أ ك ف ا ن ه ن
ع لـ ي الم ن ع لـ ي ل الـ م ن و ن

المستطاببات الظهور
المستلذذات البطون
المستقيبات الصفوف
وقفن كالحيل الصفون
اسمع حديثي في انبساطا
طي فالحديث أخوشجون

وهي أكثر من هذا

فصل

قال العماد: قد سبق ذكر مليح بن لاون مقدّم بلاد الأرمن والتجائه إلى نور الدين وتطاوله بقوّته على الروم والأرمن، وكانت الدروب تحت أذنه والمصيصة وسيواس يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون فكسرهم وقتل وأسر وساق لنور الدين من مقدّمي الروم ثلاثين أسيراً، فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله، ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد ويقول فيه: «وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يديني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الامام»، وفي آخره «ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تيسر في هذه النوبة من افتتاح بعض بلاد النوبة، والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنايك الخيل الإسلامية في العصور الخالية، وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها، وتحكموا في محكم معاقلها ومصونها، حتى بلغوا إلى حدود المغرب، فظفروا من السّؤال بعنقاء مغرب».

قلت: اتفق في هذه السنة وصول قراقوش غلام تقي الدين من الديار المصرية، مع طائفة من الترك، فانضم إليهم جماعة من العرب، فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المهديّة وسفاقس وقفصة وتونس.

وفي آخر ذلك الكتاب: «ونسأل الله التوفيق لاستدناه قواصي المنى، وإقصاء عبدة الصليب الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتوح مراده، ومقتدح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده» وسير العماد معه قصيدة منها:

بالمستضيء أبي محمد الحسن
رجعت أمور المسلمين إلى السنن
في أرض مصر دعاه خطباؤها
وأنت لتخطب بكر خطبته عدن
فالمغرب الأقصى بذلك مشرق
وبنصر مصر محقق يمين اليمن
ورأى الاله المستضيء لشرعه
وعباده نعم الأمين المؤمن
سر النبوة كما من فيه ومن
فطر الامامة مشرق نور الفطن
تقوى أبي بكر ومن عمر الهدى
وحياء عثمان وعلوم أبي الحسن
وبجده عرفت مقالة حيدر
لامن ددانا ولا مني السددن
كم من عدو ميت في جلده
رعبا وخوفا فهو حي في كفن

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله :
هل مثل محمود بن زكري نخلص
متوحد يبغي رضاك بكل فن
ورع لدى المحراب أروع محرب
في حالتيه إن أقام وإن ظعن
يمسي ويصبح في الجهاد وغيره
يضحي رضيع سلافة وضجيع دن
وبعزة الاسلام منتصرا حراً
وبذللة الاشرار منتقما قمن

قال ابن أبي طي: وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد
ومعه توقيع لنور الدين بدر بن هارون وصريفين، وخمسين ديناراً من

دنائير النثار التي نثرت يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخطبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنائير

قال العماد: وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق لزنكي والد نور الدين قديما من انعام أمير المؤمنين، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرسم في حقه فأنعم بهما الخليفة عليه، ووجه بهما مثاله الشريف إليه، وكان من مراده أن يستوهب ببغداد على شاطئ دجلة أرضا يبينها مدرسة للشافعية، ويقف عليها الناحيتين طلباً للأجر والذكر الباقي على ممر الدهر، فقيل له ما ثم موضع يصلح لهذا إلا درار التمر فعاقه أمر القدر عن قدرته على هذا الأمر.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسةائة

ونور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها، ومليح بن لاون متملك الأرمن في خدمته، ووصل إلى خدمته أيضاً ضياء الدين مسعود ابن قفجاق صاحب ملطية، وكان في خدمته أيضاً الأمراء من المجدل فسرحهم بالعطاء الأجل، والسمت الأجل، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم على الفسرة فتقبله مستخلف الأرمن بالبراق، وحمل خمسين ألف دينار على سبيل الجزية مصانعة بذل وصغار، وعاد إلى حلب، وقد أنجح في كل ما طلب، وأراد أن يسرع إلى دمشق فالتث سره لالتياث سريته وحظي بمرض القلب لمرض جسم عظيته، وجرت شكايته شكاية جاريتها، فتصدق عنها بالوف، والتزم الله في شفائها بنذور ووقوف، ثم سيرها في خفة تحمل على يدي الرجال في خفة، وسارت على الطريق المهيع مع العسكر يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر، فما تقرب إليه بمثل حملها والمشي معها، وتقدم بحق لازم من بخدمته شيعها، وتأخر نور الدين جريدة مع عدة من مماليكه وأمراة المباحضين في ولايته، وتقدم إلي أن أسايره في طريقه وأحاوره وأحاضره في منازله وأسامره، وسرنا على طريق قبة ابن ملاعب والمشهد وسلميه، فجاءه الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان، وسمع الفرنج به فتفرقوا وقلقوا بعدما كانوا أقلقوا، ودخلنا دمشق.

قلت: وفي جمادى الأولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان، ورأيت منشوره بذلك وعلامته عليه بخطه «الحمد لله» يقول فيه: «وبعد فإن من سنتنا العادلة وسير أيامنا الزاهرة، وعودا دولتنا القاهرة إشاعة المعروف، وإغائه الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون، من جائرات الرسوم، وما نزال نجدد للرعية رسماً من الاحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون من حياضه، ونستقرى أعمال بلادنا المحروسة ونصفيها من الشبه والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي

رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقريباً إلى الله تعالى الكافل لنا بسيوغ المواهب، وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور، والعقبية ومزارعها الجارية في الاملاك، وجميع ما يقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناء على أربابه، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهرباً من انتقامه واليم عقابه، وسبيل الثواب إطلاق ذلك على الدوام، وتعفية آثاره، والاستعفاء من أوزاره، والاحتراز من التدنس بأوضاره وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسع وستين، وما بعدها على تعاقب الأيام والسنين».

فصل

في فتح اليمن

قال العماد: وفي رجب توجه تورانشاه أكبر أخوة صلاح الدين إلى اليمن، فملكها وكان يحته على المسير إليها عمارة اليمني شاعر القصر، وكان كثير المدح لتورانشاه فتجهز وسار إلى مكة ثم إلى زيد، فملكها وقبض على الخارجي بها، وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ ومضى إلى عدن فأخذها، واستتاب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعز من القلاع، ففتح اقليماً، ومنح ملكاً عظيماً، واقترع بكراً، وشيع ذكراً.

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسع وستين، رأى صلاح الدين فوةً عسكريه، وكثرة عدد أخوته، وقوة بأسهم، وكان بلغه أن باليمن انساناً

استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه يسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم أنه ينشر ملكه إلى الأرض كلها واستتب أمره، فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر الملك المعظم تورانشاه، وكان كريماً أريحياً حسن الأخلاق، سمعت منه — يعني من صلاح الدين رحمه الله — الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه، فمضى إليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها.

قلت: وكان أخو هذا الخارجي قد خرج باليمن قبله، ذكر عمارة اليمني في أول كتابه في وزراء مصر في أثناء كلام له قال: وكان جماعة من أمثال الناس، مثل بركات المقرئ وعلي بن محمد النيلي والفقير أبي الحسن علي بن مهدي القائم الذي قام باليمن، وأزال دولة أهل زيد وغيرهم قد سبقوني، يعني إلى صاحب عدن، فذكر كلاماً يتعلق به.

وقال العماد في الخريدة: علي بن مهدي ملك اليمن في زماننا هذا، وسفك الدماء وسبى المسلمين، وأقبل على شرب الخمر، وادّعى الملك والإمامة، ودعا إلى نفسه، وكان يحدث نفسه بالمسير إلى مكة فمات سنة ستين، وتولى بعده أخوه، وله شعر حسن يدل على علوّ همته (١٢٧).

قال ابن أبي طي: كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريماً جواداً، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بفتوته، ولا ينهض بمروته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد إلى مصر ومدح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه، وكان إذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها.

قلت فمن جملة شعره في ذلك قوله من قصيدة أوها:

العلم مذكان محتاج إلى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
كم ترك البيض في الأجنان ظامئة
إلى الموارد في الأعناق والقمم
أمامك الفتح من شام ومن يمن
فلا ترد رؤوس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور سوّمها
من الفرات إلى مصر بلا سأم
فاخلق لنفسك ملكاً لاتضاف به
إلى سواك وأور النار في العلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
كما يقول السورى للحما على وضّم
وقد ترقى إلى أن امسكت يده
من الكواكب بالأنفاس والكظم
حاسب ضميرك عن رأي أتاك وقل
نصيحة وردت من غير متهم

وله من أخرى:
أفاح أرض النيل وهي عظمة
على كل راج فتحها ومؤهل
متى توقد النار التي أنت قادح
بغمدان مشبو باسناها بمنديل
وتفتح مابين الحصين وابين
وصنعاء من حصن حصين ومعقل
وتملك من مخلاف طرق وجعفر
نقبضين من حزن خصيب ومسهل
وتخلق ملكاً لا يجيل بفخره
على أحد إلا على عزمك العلي

وله من أخرى:
قالوا إلى اليمن الميمون رحلته
فقلت ما دونه شيء سوى السفر
سير سربني الدنيا وطيب ثنا
وطول عمر كذا يحكى عن الخضر
لا توقدن لها النار التي خمدت
خفض عليك تنل ما شئت بالشر
المال ملء يد والقوم ملك يد
ولأطيب ل وهذا جملة الخبر

قال ابن أبي طي: ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم، وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه فتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة، وزوّده فوق ما كان في نفسه، وأصحابه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجاً عن سيره من حلقتة، وسار في البر والبحر، في البر العساكر، وفي البحر الأسطول يحمل الأزواد والعدد والآلات، فوصل إلى مكة شرفها الله تعالى، فدخلها زائراً، ثم خرج متوجهاً منها إلى اليمن فوصل زبيد في أوائل شوال، فنزل عليها ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني، وجميع الأشراف بنو سليمان في جمع جم، وعدد كبير، فهجم زبيد وتسلمها، واحتوى على ما فيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي علي بن مهدي، ثم رحل إلى عدن، وفي صحبته ابن مهدي، ففتحها عنوة وولاها عز الدين الزنجيلي، ثم سار إلى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كتعز وغيرها، وسار إلى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها إلا شيخاً وامرأة عجوزاً، فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلّة الميرة.

فرجع إلى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي، وكان

شمس الدولة قد استتاب بزبيد الأمير سيف الدولة المبارك ابن منقذ، وأمره بحمله، فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة في قتله، فقتله ابن منقذ بزبيد، فلما بلغ شمس الدولة قتله استصوبه، ولما حصل شمس الدولة في زييد انفذ إليه صاحب طمام (١٢٨) وصالحه هو وباقي الملوك على أداء المال، ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها، وكتب بذلك إلى أخيه الملك الناصر، فأرسل إلى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الإحسان وخوِّله من ملك الديار والبلدان، فأرسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن على ابن عيسى النقاش بالبشارة بذلك إلى بغداد.

فصل

ذكر العماد هاهنا الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ، المستتاب بزبيد ووصفه بأنه من الكفاة والكرماء، والدهاة ذوي الآراء، وهو فاضل من أهل بيت فضل، كتب العماد من شعره:

لما نزلت الدير قلت لصاحبي

قم فاخطب الصهباء من شماسه

فاتى وفي يمناه كأس خلتهها

مقبوسة في الليل من نبراسه

وكان ما في كأسه من خده

وكان ما في خده من كأسه

وكان لذة طعمها من ريقه

وأريجهما الفياح من أنفاسه

لم أنس ليلته شربها بغنائه

إذ بات يجلسها على جلاسه

إذ قام يسقين المدام وكلما

عاتبته ردًا لجواب براسه

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذروي المصري بقصيدة غراء ذالية، ما
أظن أنه نظم على قافية الذال أرق منها لفظاً، وأدق معنى أولها:
لك الخير عرج بي على ربهم فذي
ربوع يفوح المسك من عرفها الشذي

يقول فيها

مبارك عيس الوفد باب مبارك

وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ

قال العماد: ثم سير نور الدين إلى بغداد بشارة بأمرين أحدهما فتح
اليمن، والآخر كسر الروم مرة ثانية، ومقدّمهم الدوقس كلمان، وكان
قديماً أسيراً عند نور الدين من نوبة حارم، وفداه بخمسة وخمسين ألف
دينار وخمسمائة وخمسين ثوباً أطلساً، وسير معه أسرى من الروم، وذلك
في شعبان هذه السنة، ومما تضمنه كتاب البشارة « ولم ينج من عشرة
آلاف غير عشرة (حمر مستنفرة. فرّت من قسورة)»، وقبل ذلك بشهرين
سيرت قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين إلى بغداد
أولها:

أطاع دمعي وصبري في الغرام عصي

والقلب جرع من كأس الهوى غصصا

وإن صفوح حياتي ما يكدره

إلا اشتياقي إلى أجبابي الخلصا

ما أطيب العيش بالأجباب لو وصلوا

وأسعد القلب من بلواه لو خلصا

ومنها:

من ذا الذي سار سيرتي في ولائكم

غداة قال العدى لاسير عند عصا

قد نال عبدك محمود بها ظفراً
ما زال يرقبه من قبل مرتبصاً
من خوف سطوته إن العدو إذا
أم الثغور على أعقابيه نكصاً

وكلف نور الدين في هذه السنة بافادة الألفاف، والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقات، وتوفير النفقات، وكسوة النسوة والأيامى في أيامها، وإغناء فقراء الرعية وانجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذله، وعون الضعفاء وتقوية المقوين بعدله، ثم ذكر ما قدّمنا ذكره في أول الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة.

قال العماد: وفي يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة، وجلسنا نحن في ديوانه حافلين في إيوانه لبسط عدله وإحسانه، وتنفيذ أوامر سلطانه، فجاءني من أخبرني أن نور الدين نزل إلى المدرسة التي أتولاها، وبسط سجادته في قبلتها لسنة الضحى وصلاتها، فقامت في الحال، ومضيت على الاستعجال، فلقيت في الدهليز خارجاً في أجر العيادة ناجحاً، ولنهج السعادة ناهجاً، فلما رأني توقف، ولقولي تشوف، فقلت له: إن الموضع قد تشرف، أما ترى أنه من أيام الزلزلة قد تشعث، فلما رأى حاله تلبث، وقال: نعيده إلى العمارة، ونكسوه حلال النضارة، ثم حملت له وجوه سكر وشيئاً من ثياب وطيب وعنبر، وكتبت معها هذه الأبيات:

عنـد سـليمان على قـدره
هـديـة النـملة مقبـوله
ويصغـر المـلوك عن نـملة
عنـدك والـرحمة مـأمـوله
رقـي لمولانا ومـلكـي لـه
وذمتـي بـالشـكر مشغـولة

وكيف يقضي الحق ذومنة
ضعيفة بالعجز معلولة
وإنما شيممة مولى السورى
طاهرة بالخير مجبولة

قال: وكان رأى قبلة المدرسة غير مفصصة، وبالترخيم والتذهيب والتهديب غير مخصصة، فأنفذ لي لعمارتها فصوصا مذهبة وذهباً، ثم حم مقدور حمامه، وعاق القدر عن تمامه، ودفعت إلى الموصل، فرأيته في المنام وهو يجاريني في الكلام، ويقول ما يعود إلى المدرسة معناه، وقال: الصلاة الصلاة، فعرفت أنه أشار إلى المحراب، وأنه للآن على هيئة الخراب، فكتبت إلى الفقيه الذي كان عنده الذهب أن يشرع في عمارته، ودخلت دمشق يوم فراغ الصانع منه.

فصل

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القيسراني إلى الديار المصرية، واجتمع بالسلطان الملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من المغل، فصعب على السلطان، وأراد شق العصا لو لا ما ناب إليه من السكينة والعقل فأمر بعمل الحساب، وعرضه على ابن القيسراني وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وتعيين جامكياتهم ورواتب نفقاتهم، فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى.

قال: وقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسراني، وهي خمس ختمات، إحداها ختمة ثلاثون جزءاً مغشاة بأطلس أزرق، مضببة

بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب مكتوبة بذهب يانس، وختمة بخط راشد مغشاة بديباج فستقي عشرة أجزاء، وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد بقفل ذهب، وختمة بخط مهلهل جزء واحد وختمة بخط الحاكم البغدادي * ثلاثة أحجار بلخش: حجر وزنه إثنان وعشرون مثقالاً، وحجر وزنه إثنا عشرة مثقالاً، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف * ست قصبات زمرد قصبه وزنها ثلاثة عشرة مثقالاً وثلاث وربع، وقصبه وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبه وزنها مثقالان ونصف، وقصبه وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبه وزنها مثقالان وثلاث * وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل * وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس * مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالاً * خمسون قارورة دهن بلسان * عشرون قطعة بلور * أربعة عشر قطعة جزع، وذكر تفصيلها. إبريق يشم * طشت يشم * سقرق مينا مذهب * صحون صيني وزبادي وسكارج * أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار * كرتان وزن أحدهما ثلاثون رطلاً بالمصري، والأخرى أحد وعشرون رطلاً * مائة ثوب أطلس * أربعة وعشرون بيقاراً مذهبة * أربعة وعشرون ثوبا حريري * أربعة وعشرون ثوباً من الوشي حريرية بيض * حلة لفللي مذهبة * حلة مرايش صفراء مذهبة، وذكر غير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعدة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئاً كثيراً من السلاح على اختلاف ضروبه، قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد، ومنها ما استهلك لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعوا عليهم من نهبهم واستبدوا بأكثرها، وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان لأنه اتصل به خبر موت نور الدين، فأنفذ من ردها.

قال: وحدثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره.

وقال العماد: لما وصل إلى صلاح الدين رسول نور الدين، وهو الموفق خالد أطلعه على كل ما هو فيه، وأحصى له الطريف والتالد، وقال: هؤلاء الاجناد فاعرضهم واثبت أخبارهم، وما يضبط مثل هذا الاقليم إلا بالمال العظيم، ثم أنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها، وأنهم اعتادوا من السعة والدعة على نعمائها، وقد تصرفوا في مواضع لا يمكن انتزاعها، ولا يسمحون بأن ينقص ارتفاعها، فالموارد مشفوهة، والشدائد مكروهة، والمقاصد بردعها مجبوهة، والهمم بها مشدوهة، وشرع في جمع مال يسيره، ويحمله بجهد يبذله، ويخطر يحتمله، وحصل لخالد منه ما لم يكن في خلده، وجاء مطرف غناه أضعاف مثله.

فصل

في طلب عمارة الشاعر اليمني وأصحابه

قال العماد: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصبة المتصعبة المتشددة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفيه، واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيه، وعينوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير وتبيتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل، وكان عمارة اليمني الشاعر عقيدهم، ودعا للدعوة قريتهم وبعيدهم، وكانوا قد أودعوا سرهم عند من أذاعه، واستحفظوا من أضعه، وأدخلوا عدّة من أنصار الدولة الناصرية في جملتهم، وعرفوهم بجهلتهم، وكان الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا يناجيهم فيما زين لهم من سوء أعمالهم، ويدخلهم في عزم خروجهم، مطلعاً على أحوالهم، وتقاسموا الدور والأملاك، وكادت أمالهم تدنو من الإدراك، فجاء زين الدين الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم وما سؤلوه من مراد مرادهم وطلب مالابن كامل الداعي من العقار والدور، وكل مما له من الموجود والمذخور، فبذل له السلطان كل ما طلبه، وأمره بمخالطتهم ورغبه، ثم أمر السلطان باحضار مقدّمهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب يوم السبت ثاني شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين منهم عمارة، وأفنى بعد ذلك من بقي منهم ومات بموتهم الخبر عنهم، وكان منهم داعي الدعاة ابن عبد القوي، وكان عارفاً بخبايا القصر وكنوزه، فباد ولم يسمح بابدائها، وبقيت تلك الخزائن مدفونة، وتلك الدفائن مخزونة، قد دفن دافنها، وخزن تحت الثرى خازنها، إلى أن يأذن الله في الوصول إليها والاطلاع عليها، وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل إلى الشام للاستعانة به على حماية ثغور الاسلام.

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين

والعوام وتآمروا فيما بينهم خفية، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا اليه من الذل والفقر، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً وتجمعوا هم وجماعة عينوهم من الأمراء وغيرهم، وأن يكتابوا الفرنج، وأن يثبوا بالملك الناصر، وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصال، واعدوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها وكتابوا الفرنج بذلك وقرروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرر، فخانهم ابن مصال فيما عاهدتهم عليه ونكث في اليمين وكفر عنها، وصار إلى الملك الناصر، وعرفه بجلية ما جرى، قال: فأحضرهم واحداً واحداً وقرره على هذه الحالة، فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم، وأخذت أموالهم، فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم، فأمر بصلبهم، وقيل إن الذي أذاع سرهم زين الدين علي الواعظ، وطلب جميع مال ابن الداعي من العقار والمال، فأعطاه جميع ذلك، وكان الذين صلبوا منهم المفضل بن كامل القاضي، وابن عبد القوي الداعي والعوريس، وكان قد تولى ديوان النظر، ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصمد القشة أحد أمراء المصريين وبنجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني أرمني، كان قال لهم: إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمنى الشاعر.

قلت: وبلغني أن عمارة إنما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتم هذا الأمر لأن فيه قليلاً لعسكر صلاح الدين، وإبعاداً لأخيه وناصره عنه.

قال العماد في الخريدة: وقعت اتفاقات عجيبة من جملتها أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له، يعني في القصيدة التي حرض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن أولها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم

وقد تقدّم ذكرها وأما البيت فهو هذا
قد كان أول هذا الدين من رجل
سعى إلى أن يدعو سيده الأمام

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء
مصر بقتله، وحرصوا السلطان على المثلة بمثله . (١٢٩)

قال: ولعمارة في مصلوب بمصر، يقال له طرخان، وكان خرج على
الصالح بن رزيك، فظفر به الصالح وصلبه، وكان يستحسن أبيات
عمارة فيه وهي:

أراد علو مرتبة وقدر
فأصبح فوق جذع وهو عال
ومدّ على صليب الجذع منه
يمين لا تطول على الشمال
ونكس رأسه لعناب قلب
دعاه إلى الغواية والضلال

قال العماد: فكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره.

وقال في البرق: ووصل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى
دمشق كتاب يتضمن هذه القضية، وهو بخط ابن قريش يعني المرتضى.

وقال ابن أبي طي: وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين كتاباً
شرح فيه قضية المصلين، فقال بعد مطلع الكتاب: « قصر هذه الخدمة
على متجدد سار للاسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في اظهاره
على الدين كله، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة، إلا أنها اسفرت عن
النجح، وأوائل كالليلة البهيمية، إلا أنها انفرجت عن الصبح، فالاسلام
ببركاته البادية، وفتكاته الماضية، قد عاد مستوطناً، بعد أن كان غريباً،

وضرب في البلاد بجرانه بعد أن كان كالكفر يتم عليه تخيلاً عجيباً، إلا أن الله سبحانه اطلع على أمرها من أوله، وأظهر على سرها من مستقبله، والمملوك يأخذ في ذكر الخبر، ويعرض عن ذكر الأثر، لم يزل يتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم، ونقض من عرى دولتهم، وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم أعداء، وإن تعدت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الاسلام، وكان لا يحتقر منهم حقيراً، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكله، وخطراته في التحرز منهم مستعمله، لا تخلو سنة تمر، ولا شهر يكره من مكر يجتمعون عليه، وفساد يتسرعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدة يتممونها، وكان أكثر ما يتعلمون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج، خذلهم الله التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع، ويزينون لهم الاقدام والقدم، ويخلعون فيها ربة الاسلام خلع المرتد المخصوص، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم، وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحيل في مفاوضتهم، سير جرج كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا، ولأهل القصر والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردد وكتب إلى الفرنج تتجدد، ثم قال: « والمولى عالم أن عادة أوليائه الاستفادة من أدبه أن لا يبسطوا عقاباً مؤلماً، ولا يعذبوا عذاباً محكماً، وإذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال أطلق سراحهم وخلي سبيلهم، ولا يزيدهم العفو إلا ضراً، ولا الرقة عليهم إلا قساوة، وعند وصول جرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه، ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسول مخاتله لارسول مجامله، وحامل بلية لاحامل هدية، فأوهناه الاغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه فتوصل مرة بالخروج ليلاً ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها

نهاراً إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلاهم وكتابهم، فمدسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم، ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى، وقبضنا على جماعة مفسده، وطائفة من هذا الجنس متمرده، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسرائر المناقفة، فكلا أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقر طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقر بعد ضربه فانكشفت أمور أخرى كانت مكتومة، ونوب غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد متفقة في الفساد».

ثم ذكر تفصيلاً حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد، وإن كان صغيراً، واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له، وأما بنورزيك، وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

ثم قال: وكانوا فيما تقدم والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم وقالوا لهم إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صدر أو إلى إيله ثارت حاشية القصر، وكافة الجند، وطائفة السودان وجموع الأرمن، وعامة الاسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

ثم قال: ولما وصل جرج كتبوا إلى الملك الفرنجي إن العساكر متباعدة في نواحي اقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده، وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة.

ثم قال: وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سناناً صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحده، والكلمة جامعة، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمه، ولا يجب به قعود عن نصره، واستدعوا منه من يتمم على المملوك غيله، أو يبيت له مكيدة وحيلة، (والله من ورائهم محيط) (١٣٠) وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن، هو وابن أخته عند الفرنج.

ولما صح الخبر وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة الدعاة إلى النار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم، ووقع التبع لأتباعهم، وشردت طائفة الاسماعيلية ونفوا، ونودي بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر، وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد، فأما من في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم، إلى أن ينكشف وجه رأي يمضي فيهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانه المستخار، وهو المستشار، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديدده، ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوافيه بقيت مادة لا تحسم الأطماع عنها، فإنه قبله للضلال منصوبة، وبيعه للبدع محجوجة — قال المؤلف: لعلها محجوبة - ومما يطرف به المولى أن ثغر الاسكندرية على عموم مذهب السنة فيه أطلع البحث أن فيه داعية خبيثاً أمره، محتقراً شخصه، عظيماً كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوته، وطبقت عقول أهل مصر فتنته، وإن أرباب المعاش فيه يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافية من أموالهن، ووجدت في منزله بالاسكندرية، عند القبض له، والهجوم عليه

كتبا مجردة فيها خلع العذار، وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار، ورفاع
يخاطب بها فيها ما تقشعرّ منه الجلود، وكان يدعي النسب إلى أهل
القصر، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً ونشأ على الضلالة كبيراً، وبالجملة
فقد كفي الاسلام أمره، وحق به مكره، وصرعه كفره.

قلت: وفي قصيدة عمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكندي رحمه
الله ونقلته من خطه:

عمارة في الاسلام أبدى جناية
ويايع فيها يبيعة وصليبا
وأسمى شريك الشرك في بغض أحمد
فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملقى إن عجمته
تجد منه عوداً في النفاق صليبا
صليب سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله
ويستقى صديداً في لظى وصليبا

قلت: الصليب الأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب،
والثالث من الصلاة، والرابع ودك العظام، وقيل هو الصديد أي بسقي
ما يسيل من أهل النار، نعوذ بالله منها.

وكان عمارة مستشعراً من الغز، وهم أيضاً منه لأنه كان من أتباع
الدولة المصرية، ومن انتفع بها، واختل أمره بعدها، فلم تصف القلوب
بعضها لبعض، وصار يظهر في فلتات لسانه في نظمه ونثره ما يقتضي
التحرز منه وإبعاده، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته، وإن
مدحهم تكلف ذلك وصرح وعرض فيه بما في ضميره، وقد قال في كتاب
الوزراء المصرية: ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه، ولا يطوى
بساطه، فقد وجدت فقدهم، وهنت بعدهم، وقال من قصيدة مدح بها
نجم الدين أيوب:

وكان لي في ملوك النيل قبلكم
مكانة عرفت بها العرب والعجم
وكان بيني وبين القوم ملحمة
في حربها ألسن الأديان تختصم
وماتزال إلى داري عوارفهم
يسعى إلي بها الإنعام والكرم
تركتم قصدي لما قيل إنك لا
تجود إلا على من مسه العدم
ولست بالرجل المجهول موضعه
ولا لنزوم من الأحسان أغتتم
ولا إلى صدقات المال أطلبها
ولا عمى نال أعضائي ولا صمم
وإنما أنا ضيف للملوك ولي
دون الضيوف لسان ناطق وفم

وقال من قصيدة مدح بها صلاح الدين رحمه الله:
قررت لي أبناء رزيك رزقا
كان في عصرهم مستنما مهنا
وأنت بعدهم ملوك فسنوا
في ما كان صالح القوم سنا
ورعوني إماما اقتداء بها ض
أولعنى فكلهم بي يعنى

وله فيه من أخرى
فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها
فلا تشبعوا منها ونحن جيع
إذا لم تريدونا فكونوا كمن مضى
ففي الناس أخبار لهم وسامع

وليس على مرّ الفطام إقامة
فهل في ضروع المكرمات رضاع

وقال في قصيدة مدح بها تقي الدين:
هل تأذنون لمن أراد عتابكم
أم ليس في إعتابكم من مطعم
ضيعتم من حق ضيفكم الذي
ما زال قبل اليوم غير مضيع
وتغافل السلطان عني حين لم
أكشف قناع مذلة وتضرّع
ورجوت نفعك بالشفاعة عنده
فسمحت لي بشفاعة لم تنفع
وإذ انطاق الرزق ضاق مجاله
أمسى مجال النطق غير موسع

وقال أيضاً:
تيممت مصرأ أطلب الجاه والغنى
فنلتها في ظل عيش ممنع
وزرت ملوك النيل ارتاد نيلهم
فاحمد مرتادي وأخصب مرتاعي
وفزت بألف من عطية فائز
مواهبه للصنع لا للتصنع
وكم طرفتني من يد عاضدية
سرت بين يقظى من عيون وهجع
وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى
بها زاد عن مرمى رجائي ومطعمي
وأوحى إلى سمعي ودائع شعره
فخبرته مني بأكرم مودع

وليست أيادي شاور بذميمة
ولا عهد لها عندي بعهد مضيع
ملوك رعوالي حرمة صار نبتها
هشياً رعته النائبات ومارعي
مذاهبهم في الجود مذهب سنة
وإن خالفوني باعتماد التشيع
فقل لصالح الدين والعدل شأنه
من الحاكم المصغي إلي فأدعي
أقمت لكم ضيفاً ثلاثة أشهر
أقول لصدري كلما ضاق وسع
وكم في ضيوف الباب ممن لسانه
إذا قطعوه لا يقوم بأصبعي
في أراعي الإسلام كيف تركتنا
فريقتي ضياع من عرايا وجوع
دعوناك من قرب وبعد فهدب لنا
جوابك فالباري يجيب إذا دعي

وقال أيضاً:
أسفى على زمن الإمام العاضد
أسف العقيم على فراق الواحد
جالست من وزرائه وصحبت من
أمرائه أهل الثناء الخالد
لهفي على حجرات قصرك إذ خللت
يابن النبي من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكرك الذي
كانوا كأموج الخضم الراكد
قلدت مؤتمن الخلافة أمرهم
فكبا وقصر عن صلاح الفاسد

فحسى الليالي أن تردّ إليكم
ماعدتكم من جميل عوائد

وقال أيضا:

قست رأفة الدنيا فلا الدهر عاطف
عليّ ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل فترة
كلام العدى فيها عليّ كل يوم
وسأحبه في قطع رزق بفضلته
وصلت إليه والزمان ذميم
الأهل له عطف عليّ فإنني
فقير إلى ما اعتدت منه عديم

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل رحمه الله، وبلغني أن عمارة لما مروا به
ليصلب عبروا به على جهة دار الفاضل فطلب الاجتماع به، فقيل ليس
إليه طريق فقال:

عبد الرحيم قد احتجب
إن الخلاص هو العجب

قال: وهذه القصيدة تحقق ما ذكر من الاجتماع على مكاتبة الفرنج،
والخوض في فساد الدولة، بل المله، وتوضح عذر السلطان في قتله، وقتل
من شاركه في ذلك، وهي:

رمىت يادها ركف المجد بالشلل
وجيده بعد حلي الحسن بالعطل
سعيت في منهج الرأي العشور فمن
قدرت من عثرات البغي فاستقل
جدعت مارنك الأفتى فأنفك لا
ينفك ما بين نقص الشين والخجل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل
سقيت مهلاً ما تمشي على مهل
لهفي ولهف بني الأمال قاطبة
على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها
من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوفا ومن
كما لها أنها جاءت ولم أسئل
وكنت من وزراء الدست حيث سما
رأس الحصان تهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش نكرمة
وخلة حرس من عارض الخلل
يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة
لك الملامة إن قصرت في عذلي
بالله زرساحة القصرين وابك معي
عليهما لا على صفيين والجمـل
وقل لأهلها والله ما التحمت
فيكم قروحي ولا جرحي بمن دمل
ما ذاتري، ك انت الأفرنج فاعلة
في نسـل آل أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما
ملكتم بين حكم السبي والنفل
وقد حصلت عليها واسم جدكم
محمد وأبيكم غير منتقل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهي خوف منتقد
من الأعادي ووجه الود لم يمل

أسبلت من أسف دمعي غداة خلعت
رحابكم وغدت مهجورة السبيل
أبكي على ماتراءت من مكارمكم
حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورث منها جديد عنهم وبلي
وموسم كان في كسر الخليج لكم
يأتي تجملكم فيه على الجميل
وأول العام والعيدان كان لكم
فيهن من ويل جود ليس بالوشل
والارض تهتز في عيد الغديرها
تهتز ما بين قصر يكم من الأسل
والخيل تعرض من وشي ومن شية
مثل العرائس في حل وفي حلال
ولا حملتم قرى الاضياف من سعة الـ
أطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عمتم به الأقصى من الملل
كانت روايتكم للذمتين وللضيـ
ف المقيم وللطاري من الرسل
وللجوامع من أحبا سكم نعم
لمن تصدق في علم وفي عمل
وربما عادت الدنيا لعقلها
منكم ووضحت بكم محلولة العقل

وقال العماد في الخريدة: أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدعاة بمصر للأدعياء، وقاضي القضاة لأولئك الأشقياء، يلقبونه بفخر الأمناء، وهو عندهم في المحلة العليا، والمرتبة الشماء، والمنزلة التي في السماء، حتى انكدرت نجومهم، وتغيرت رسومهم، وأقيم قاعدتهم، وعضد عاضدهم، وأخلت منهم مصرهم. وأجلي عنهم قصرهم، فحرك ابن كامل ناقص الذب عنهم والشدة منهم، فأمال قوما على البيعة لبعض أولاد العاضد ليبلغوا به ما تحيلوه من المقاصد وسؤلوه من المكاييد. فأثمرت بجثتهم الجذوع. وأقفرت من جسومهم الربوع. وأحكمت في لحومهم النسوع. وهذا أول من ضمه جبل الصليب. وأمه فاقره الصليب. وهذا صنع الله فيمن ألد وكفر النعمة وحجد. وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسة، سمعت الملك الناصر صلاح الدين يذكره. وقد ذكره عنده بالفضل والأدب. ونسبوا إليه هذين البيتين في غلام رفاء. وأنشدهما للملك الناصر وذكر أنه كان ينكرهما:

يارافيا خرق كل ثوب

ويارشاحبه اعتقادي

عسى بكف الوصال ترفو

مامزق الهجر من فؤادي (١٣١)

فصل

في التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره

قال العماد: وقد أوردت شعر عمارة ابن أبي الحسن اليميني في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، ونقلت إلى هذا الكتاب - يعني كتاب البرق الشامي - لمأ من ذلك فمن ذلك ما أنشدهني نجم الدين أبو

محمد بن مصال:

لو أن قلبي يوم كاظمة معي
لملكته وكظمت غيظ الأدمع

قال العماد: إنما أنشدني فيض الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق
بالكظم:

قلب كفاك من الصباية أنه
لبى نداء الظاعنين ومادعي
ومن الظنون الفاسدات توهمي
بعبد اليقين بقضاءه في أضلعي
ما للقلب أول غادر فالومه
هي شيمة الأيام مذ خلقت معي
ملك إذا قابلت بشر جبينه
فأرقته والبشر فوق جبينني
وإذا الثمت يمينه وخرجت من
أبوابه لثم الملوك يمينني

قال: وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن منقذ
يقول:

لي في هوى الرشاء العذري أعذار
لم يبق لي مذ أقر الدمع انكار
لي في القدد وفي لثم الخدد وفي
ضمم النهود لبانات وأوطار
هذا اختياري فوافق أن رضيت به
أولا فدعني وما أهوى واختار
لمني جزافا وساخني مصارفة
فالناس في درجات الحب أطوار
وخل عذلي ففني داري ودائري
من المه إدارة قلبي لها دار

قلت: ويروي: «وخل غيري ففي أسري ودائرتي» والأبيات العينية من قصيدة في مدح تقي الدين، والنونية في مدح نجم الدين أيوب، والرائية في مدح شمس الدولة بن أيوب، وكان عمارة هذا عريباً فقيهاً أديباً، وله كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن، ثم بمصر، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه، قال: ولي في الفرائض مصنف يقرأ باليمن. وفي سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من أخوتي إلى زبيد فأنشدته شيئاً من شعري فاستحسنه، ثم قال: تعلم والله أن الأدب لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بدم الناس، واستحلفني أن لا أهجو مسلماً بيت شعر، فحلفت له على ذلك ولطف الله بي فلم أهج أحداً ما عدا إنساناً هجاني بحضرة الملك الصالح — يعني ابن رزيق — بيتي شعر، فاقسم الصالح علي أن أجيبه ففعلت متأولاً قول الله عز وجل: (ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) (١٣٢) وقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (١٣٣) قال: ولم يكن شيء غير هذا

وحججت مع الملكة أم فاتك ملك زبيد، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاج اليمن براً وبحراً وبجميع خفارات الطريق، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها فانتفع بها حتى أثرى وكثر ماله وجاهه، ثم طرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن وحج سنة تسع وأربعين وخمسة، قال: وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم ابن فليته، وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم، فألزمني السفارة عنه، والرسالة منه إلى الدولة المصرية، فقدمتها في شهر ربيع الأول سنة خمسين، والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيق، فلما حضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتها

الحمد لليس بعد العزم والهمم
حمداً يقوم بها أولت من النعم

لأجحد الحق عندي للركاب يد
تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قربن بعد مزار العزم من نظري
حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم
وفدا إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أني بعد زورته
ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سراقها
بين النقيضين من عفو ومن نقم
ولإمامة أنوار مقدسة
تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا
على الخفيين من حكم ومن حكم
وللمكارم أعلام تعلمنا
مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلى السن تثنى محامدها
على الحميدين من فعل ومن شيم
وراية الشرف البذاخ ترفعها
يد الرفيعين من مجد ومن همم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً
فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلها
وزيره الصالح الفراج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غائله
إلا يبد الصنعتين السيف والقلم
وجوده أوجد الأيام ما اقترحت
وجوده أعدم الشاكين للعدم

قد ملكته العوالي رق مملكة
تغير أنف الثريا غرة الشمم
أرى مقاماً عظيم الشأن أوهمني
في يقظتي أنهما من جملة الخلم
يوم من العمر لم يخطر على أمل
ولا ترقبت إليه رغبة الهمم
ليت الكواكب تدنولي فأنظمها
عقود مدح فما أرضى لكم كلمي
ترى الوزارة فيه وهي باذلة
عند الخلافة نصحا غير متهم
عواطف أعلمتنا أن بينهما
قراية من جميل الرأي لا الرحم
خليفة ووزير مدعدهما
ظلاً على مفرق الإسلام والأمم
زيادة النيل نقص عند فيضهما
فما عسى يتعاطى منة الديدم

قال: وعهدي بالصالح وهو يستعيدها في حال النشيد مرارا
والاستاذون والأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب، ثم
أفيضت عليّ خلع من ثياب الخلافة مذهبة، ودفع إليّ الصالح خمسمائة
دينار، وإذا بعض الاستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الامام
الحافظ بخمسمائة دينار أخرى وحمل المال معي إلى منزلي، واطلقت لي
من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلي، وتهادتنى أمراء الدولة إلى
منازلهم للولائم، واستحضرني الصالح للمجالسة، ونظمني في سلك أهل
المؤانسة، واثالت عليّ صلواته، وغمرني بره، ووجدت بحضرتة من أعيان
أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي ابن الجباب، والموفق أبا الحجاج
يوسف بن الخلال صاحب ديوان الانشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس،
والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير، وغيرهم، وما من هذه الحلقة أحد الا

ويضرب في الفضائل النفسانية، والرياسة الانسانية بأوفر نصيب،
ومازلت أحنو على طرائقهم حتى نظموني في سلك فرائدهم وقلت:
ليالي بالفسطاط من شاطئ مصر
سقى عهدك الماضي عهدا من القطر
ليال هي العمر السعيد وكل ما
مضى في سواها لا يعد من العمر
أفادتني الأقدار فيها مواليا
صفت بهم الأيام من كدر الغدر
تواصوا على أن لا ترد إرادتي
ولو سمتهم نثر الكواكب في حجري

وله في الصالح من قصيدة:
ولو لم يكن أدري بما جعل السورى
من الفضل لم تنفق لديه الفضائل
لئن كان مناقب قوس فيينا
فراسخ من إجلاله ومراحل

قال: وأنشدت الصالح، وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدة منها:
دعوا كل برق شتمم غير بارق
يلوح على الفسطاط صادق بشره
وزوروا المقام الصالحى فكل من
على الأرض ينسى ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى
فتجنوا على مجد المقام وفخره
ولكن سلوا منه العلى تظفروا بها
فكل امرء يرجى على قدر قدره

قال: ولما جلس شاوور في دار الذهب، قام الشعراء والخطباء، ولفيف
الناس إلا الأقل ينالون من بني رزيك، وضرغام نائب الباب، ويحيى بن

الخياط الاسفهلار فأنشدته:

صحت بدولتك الأيام من سقم
وزال ما يشتكيه الدهر من ألم

ومنها:

زالت ليالي بني رزيك وانصرفت
والحمد والندم فيها غير منصرم
كأن صالحهم يوماً وعاد لهم
في صدر ذاللدست لم يقعد ولم يقم
كناظن وبعض الظن مائمة
بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر خاتمهم
من كان مجتمعا في ذلك الرخم
ولم يكونوا عدواً ذل جانبه
وإنما غرقوا في سيلك العرم
وما قصدت بتعظيمي عدك سوى
تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم
ولو شكوت لياليهم محافظة
لعهدهم لم يكن بالعهد من قدم
ولو فتحت فمي يوماً بئذهم
لم يرض فضلك إلا أن يسد فمي
والله يأمر بالاحسان عارفة
منه وينهى عن الفحشاء في الكلم

قال: فشكرني شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رزيك.

قلت: وشعر عمارة كثير حسن، وعندني في قوله: « الحمد للعيس » وإن
كانت القصيدة فائقة، ثغرة عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا: « الحمد

« ولا ينبغي أن يفعل ذلك مع غير الله عز وجل، فله الحمد، وله الشكر، فهذا اللفظ كالمتمعين لجهة الربوبية المقدسة، وعلى ذلك اطراد استعمال السلف والخلف رضي الله عنهم.

فصل

في وفاة نور الدين رحمه الله تعالى

قال العماد: وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر واحتفلنا لهذا الأمر، وغدونا أياما، قال: ونظمت للهناء بالعيد والظهور قصيدة منها:

عيـدان فـطـر و طـهـر
فـتـح قـرـيـب و نصـر
كـلا هـما لـك فـيـه
حـقـا هـنـاء و أجـر
و فـيـهـا بـالـتـهـنـي
رـسـم لـنـسـم
طـهـارة طـاب مـنـهـا
أصـل و فـرع و ذكـر
نـجـل عـلى الطـهـر نـمـام
زكـا لـه مـنـك نـجـر
مـحـمـود الـمـلـك العـمـاد
لـك الـكـرـيـم الأـغـر
و بـابـنـه الـمـلـك الصـا
لـح العـيـون تـقـر
مـولـى بـه اشـتـد لـلـديـ
نـ و الشـرـيـعـة ازـر
نـور تـجـلى عـيـانـا
مـادونـه الـيـوم سـتر
أضـحـت مـسـاعـيـك غـرا
كـما أـيـادـيـك غـزر

وكل قصصك رشيد
وكل فعلك بك بسر
وإن حبك ديين
وإن بغضك كفسر
لنسا يمينك يمين
كما يسراك يسر
وللمع والين نف مع
وللمع اديين من ضر
وللسماء سحاب
وسحاب كفيك عشر
ناديك بالفرد حسب
نذاك للوفد بحر
للبحر مد وجزر
ومما الجودك جزر
عدل عميم وجود
غمم ويسر وبشر
وفي العطينة حل و
وفي الحمية م
قند استسوى منك تقوى
الإله سر وجه
تقائك والمالك عند ال
قياس عقد ونحر
يا أعظم الناس قدراً
وهل لغيرك قدر
وساهراً حين ناموا
وقنا حين قروا
ما اعتدت إلا وفاء
وعادة القوم غدار

وفعلك الدهر غزو
للمشركين وقفه
فعمل غيرك ظلم
للمسلمين وقسم
يفتر من كل ثغر
إلى ابتسامك ثغر
روم به وفرنج
في سفحه
حرب عوان وقتح
على مرادك بك
بنو الاصفار من خش
ينة انتقامك صفر
لم يبق للكفر ظفر
لا كان للكفر ظفر
ومادجى ليل خطب
إلا وعزمك فجبر
أصبحت بالغزو صببا
وعنه مالك صبر
لكسر كل يتيم
إسعاف برك جبر
في كل قلب حسب حود
من حرب بأسك جبر
تمل تطهير ملك
له الملوكة تخبر
بزهى سريرو تاج
ببه ودست وصددر

وكيف يعمّل للطا
هـ المظهِر طه رطه
هـ هذا الظهور ظه ور
على الزمان وأمر
وذا الختان ختام
بمسك طه ساب نشر
رزقت عمراً طويلاً
ما طال للدهر عمر

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرسم المعتاد، مخفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الاعياد، ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق، وكان مسجد صلاته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر، وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفرائش قاضي العسكر بعد أن صلى به وذكر، وعاد إلى القلعة طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب العطايا والإنعام على رسم الأتراك وأكابر الاملاك، ثم حضرنا على خوانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاص والانتقاص، وما أوضح بشره، وأضوع نشره، وأضحك سنه، وأبرك يمنه، وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكر وركب، وجمل الموكب، وكان الفلك بنيره جار، والطود الثابت بمرور السحاب في وقار، وكأنه القمر في هالته، والقدر في جلالته، والبدر في دائرته سائرين بين سيارته، ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفهاء يحاورونه، وفيهم همام الدين مودود وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أول دولته والي حلب، وقد جرب الدهر بحنكته ولأشطره حلب، فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغترّ بأيامه: هل نكون هاهنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل: هل نكون بعد شهر فإن السنة بعيده فجرى على منطقتها ما جرى به القضاء السابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى

العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه البرره، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يرنقش، وقال له: باش فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزيره، ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل واحتجب واعتزل فبقي اسبوعا في منزله مشغولا بنازله، مغلوبا عن عاجله، بحديث أجله، والناس من الختان لاهون بأوطارهم في الاوطان، فهذا يروح بجوده، وذلك يجود بروحه، فما انتهت تلك الافراح إلا بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصلاح.

قال: واتصل مرض نور الدين، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيبا فما روجع وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء، ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصالحين، وصار إلى جنات عدن أعدت للمتقين وكانت له صفة في الدار التي على النهر الداخلة إلى القلعة من الشمال، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال، فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بازاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب مأمون الاضطراب، فهو يبيت فيه، ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح، فدفن في ذلك البيت الذي اتته هـى من الحمام، وأذن بناؤه لبانيه بالإهدام، قال العماد وقلت في ذلك:

عجبت من الموت كيف أتى

إلى ملك في سجاياملك

كيف ثوى الفلك المستدير

في الأرض والأرض وسط الفلك

وله فيه رحمها الله تعالى

ياملكا ياممه لم تنزل

لفضله فاضلة فاخرة

غاضت بحار الجود مذغيبت

أنملك الفائضة الزاخره

ملكوت دنياك وخلفتها
وسرت حتى تملك الآخره

قال ابن شدّاد: وكانت وفاة نور الدين رحمه الله بسبب خوانيق أعتريته عجز الأطباء عن علاجها، ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف يرده إذا تحقق قصده، وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاة رحمه الله ورضي عنه.

قال ابن الاثير: وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليركها بالشام لمنعه من الفرنج ليسيروا بعساكره إلى مصر، وكان المانع لصلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لا يرى إلا الجدد في غزوهم بجهدهم وطاقته، فلما رأى اخلال صلاح الدين بالغزو، وعلم غرضه تجهيز بالمسير إليه فاتاه أمر الله الذي لا يرد.

قلت: ولو علم نور الدين ماذا ذكر الله تعالى لاسلام من الفتوح الجليلية على يد صلاح الدين من بعده لقرت عينه، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه واتمها رحمها الله تعالى.

قال: وحكى لي طبيب بدمشق يعرف بالرحبي وهو من حذاق الأطباء قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت

الخوانيق منه، وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض فيه فلم يتقبل عنه، فلما دخلنا عليه، ورأينا ما به قلت: كان ينبغي أن لا يؤخر احضارنا إلى أن يشتدّ بك المرض إلى هذا الحدّ فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح، فله أثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينفع فيه الدواء، وعظم الداء، ومات عن قريب رضي الله عنه.

قال ابن الاثير: وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية إلا في حنكه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو العينين، وكان قد اتسع ملكه جداً فملك الموصل وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشام والديار المصرية، واليمن وخطب له بالحرمين الشريفين: مكة والمدينة، وطبق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله، ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر رحمة الله تعالى عليه.

قال الحافظ أبو القاسم بعدما ذكر أوصاف نور الدين الجليلة المتقدمة مفرقة ومجموعة في هذا الكتاب: هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين والرأي الثاقب الرصين، والافتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والافتقار لسيرة من سلف منهم في حسن سمعتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه، حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً، كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاضه رأى من لطافته وتواضعه ما يجيره، يحب الصالحين، ويواخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم، وإذا احتلم بماليكه أعتقهم، وزوج ذكرانهم بأنائهم ورزقهم، ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد من ولاته، أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله باسقاط المنزلة

والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال تيسر له جميع ما يقصده من الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكن له في البلدان والبقاء.

ثم قال بعد كلام كثير: ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة، ومدحه جماعة من الشعراء فأكثرُوا، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصروا، وهو قليل الابتهاج بالشعر زيادة في تواضعه لعلو القدر، ومولده على ما ذكر لي كاتبه أبو اليسر شاکر بن عبد الله وقت طلوع الشمس من يوم الأحد سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه جوار الخواصين في الشارع الغربي رحمه الله.

قلت وفي هذه المدرسة يقول العرقلة:
ومدرسة سيـدرس كل شيء
وتبقى في حمى علم ونسك
تسوع ذكرها شرقا وغربا
بنور الدين محمد ودبن زنكي
يقول وقوله حق وصدق
بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت ملكي
وهذي في المدارس بيت ملكي (١٣٤)

ولما اشتهر من قلة ابتهاجه بالمدح لما علم من تزايد الشعراء، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء قال يحيى بن محمد الوهراني في مقامة له وقد سئل في بغداد عن نور الدين: «هو سهم للدولة سديد، وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد، وملك مجاهد، تساعد الأفلاك، وتعضده الجيوش والأملاك، غير أنه عرف بالمرعى الوييل لابن السبيل،

وبالمحل الجديب للشاعر الاديب فما يريزى ولا يعزى، ولا لشاعر عنده
من نعمة تجزى (١٣٥) واياه عنى أسامة بن منقذ بقوله:
سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم طاهرة
من المعاصي وفيها الجوع والعطش ١٣٦

قلت: رحمه الله ما كان يبذل أموال المسلمين إلا في الجهاد، وما يعود
نفعه على العباد، وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز وهو من
سادات التابعين بالشأم قال يعقوب بن سفيان الحافظ: حدثنا ضمرة عن
الشيبياني قال: كان ابن الديلمي من أنصر الناس لأخوانه فذكر ابن
محيريز في مجلسه، فقال رجل: كان بخيلاً، فغضب ابن الديلمي وقال:
كان جواداً حيث يجب الله، بخيلاً حيث تحبون (١٣٧)

وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور
الدين رحمه الله:

في كل عام للبرية ليلة
فيها تشب النار بالايقاد
لكن لنور الدين من دون الورى
ناران نار قرى ونار جهاد
أبدأ بصرفها نداءه وبأسه
فالعام جمع ليلة الميلاد
ملك له في كل جيد منة
أبى من الأطواق في الاجياد
أعلى الملوك يداً وأمنعهم حمى
وأمدتهم كفاً يبذل تلالاد
يعطي الجزيل من النوال تبرعاً
من غير مسألة ولا ميعاد

لازال في سعة وملءك دائم
ما دامت الدنيا بغير نفاذ (١٣٨)

وقد تقدّم من شعر ابن منير، وابن القيسراني، والعماد الكاتب وغيرهم من مدح نور الدين بالكرم والجود ما قليل منه يرد قول الوهراني وابن منقذ، على أن ابن منقذ قد ردّدنا شعره بشعره كما تراه وإنما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله تعالى في وصف قوم: (فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منه إذا هم يسخطون) (١٣٩) وما كل وقت ينفق العطاء، ويفعل الله ما يشاء .

فصل

قال ابن الاثير: لما توفي نور الدين جلس ابنه الملك الصالح اسماعيل في الملك، وحلف له ولم يبلغ الحلم، وحلف له الأمراء والمقدّمون بدمشق، وأقام بها وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام وصالح الدين بمصر، وخطب له بها وضرب السكة باسمه فيها، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدّم.

قال العماد: وأخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل، وقد أبدى الحزن والعيول. وهو مجزوز الذوائب، مشقوق الجيب، حاسر حاف، مما فجأه وفجعه من الريب، وأجسوه في الإيوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تتش، فاستوحى كل قلب حزنه واستوحش، فوقف الناس يضطرمون، ويضطربون، ويتلهفون، ويلتهبون، ولما كفن بحلة الكرامه، ودفن في روضة بابها إلى باب رضوان من دار المقامه، وقضوا الجزع، وقوضوا الفزع، وغيبوا الدمعه، واحضروا الربعة، حضر القاضي كمال الدين، وشمس الدين بن المقدّم،

وجمال الدولة ريجان، وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمي أمين الأعمال، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة، وعزائمهم متعاقده، وأن ابن المقدم مقدم العسكر وإليه المرجع والمصدر.

قال : وأنشأت في ذلك اليوم كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيتة بنور الدين ترجمته « اسماعيل بن محمود ».

وفيه : « أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل، ندب الشام، بل الاسلام، حافظ ثغوره، وملاحظ أموره، ومقدام الجهاد، مقتني فضيلته، ومؤدي فريضته، ومحبي سنته، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريه على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره، وما هاهنا ما يشغل السر ويقسم الفكر إلا أمر الفرنج خذلهم الله، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث الجلل، والصرف الكارث المذهل، فقد آذخره لكفايات النوائب، وأعدّه لحسم أدواء العضلات اللواذب، وأمله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده، ومكنه قوة لعضده، فما فقد رحمه الله إلا صورة، والمعنى باق والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سموه من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر، وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ما جمع، والأهم شغل الكفار عن هذه الديار بما كان عازما عليه من قصدهم، والنكاية فيهم على البدار، ويجري على العادة الحسنى في أحياء ذكر الوالد بتجديد ذكرنا راغبا في اغتنام ثنائنا وشكرنا ».

قلت: وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين، فأرسل كتابا بالمثل الفاضلي فيه: « ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين أعاذنا الله فيه من سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب والوجوه، فاشتد به الأمر، وضاق به الصدر، وانقصم بحادثه الظهر، وعز فيه التثبيت، وأعوز

الصبر، فإن كان والعياذ بالله قد تم، وخصه الحكم الذي عم، فللحوادث تدخر النصال، وللأيام تصطنع الرجال، وما رتب الملوك ممالكها إلا لأولادها، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا لتؤدي حقها يوم حصادها، فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتبلغ الأعداء مرادها، وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها، فكونوا يداً واحدة، وعضاداً متساعداً، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفا يضمها غمد، ولا تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنامل، فالعادة محذقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الإيوان، ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله، وقائم لا نسلمه، وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت بأن ولده القائم بالأمر، وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت، والطاعة في الغيبة والحضور أتيت وفعلت، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من ناوأه، وسيف على من عاداه، وإن اسفر الخبر عن معافاه، فهو الغرض المطلوب، والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب».

قال العماد: وورد كتاب صلاح الدين بالمثال الفاضلي معزيا لابن نور الدين وفي آخره: « وأما العدو خذله الله فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهاره، وسيل لقراره إلى أن يزعجه من مجائمه، ويستوقفه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه، أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم، وأشبهه يوم الخادم أمسه في الخدمة، ووفى ما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الإسلام، عالماً أن الجماعة رحمة، والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهد النعماء الراهنة لديه، ويجعل للإسلام واقية باقية عليه، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده،

وييسر منال كل أمر صالح، وتقريب بعينه إن شاء الله تعالى.

ومن كتاب آخر: « الخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لأوامرها، والتعرض لمراسمها، والرفع لكلمتها، والإيالة لعسكرها، والتحقق بخدمتها في بواطن الأحوال وظواهرها، والترقب لأن يؤمر فيمثل، ويكلف فيحتمل، وأن يرمى به في نحر العدو فيتسدد بجهده، ويوفي أيام الدولة العالية يوماً يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده».

قال العماد: ولما توفي نور الدين اختل أمري، واعتل سري، وعلت حسادي، وبلغ مرادهم أضدادني، وكان الملك الصالح صغيراً فصار العدل ابن العجمي له وزيراً، وتصرف المتحالفون في الخزانة والدولة كما أرادوا، وولوا وصرّفوا ونقصوا وزادوا، واقتصروا لي على الكتابة محروم الدعوة من الإجابة، وبما نظمت في مرثية نور الدين قصيدة منها:

لقد الملك العا

دل بيكي الملك والعدل

وقد أظلمت الأف

ق لاشمس ولا ظ

ولما غاب نور الدي

من عنا أظلم الحفل

وزال الخصب والخير

روزاد الشر والمح

ومسات البأس والجو

دوعاش اليأس والبخل

وعزز التقصص لماها

ن أهل الفضل والفضل

وهل ينفق ذو الع

م إذا ما نفق الجهل

وما كان لنور الدي

من لولا نجله مثل

فصل

قال العماد: واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس، ورجوا أن يتم لهم الأمر ثم ظهرت خيبتهم وبان اليأس، وذلك أن شمس الدين بن المقدم خرج وراسل الفرنج، وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم، وأنه قد عزم على جهادهم، وتكلموا في الهدنة، وقطع مواد الحرب والفتنة، وحصلوا بقطيعة استعجلوها، وعدة من أسارهم استطلقوها، وتمت المصالحة، وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه، وكتب إلى جماعة الأعيان كتباً دالة على التوبيخ والملام، ومن جملتها كتاب بالمثل الفاضلي إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، يخبره فيه أنه لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهز وخرج وسار أربع مراحل، « ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى، وسيدنا الشيخ أولى من أطلق لسانه الذي تغمد له السيوف، وتجرد، وقام في سبيل الله قيام من يقطع عادية من تعدى وتمرد»، وفي آخره: « وكتب من المنزل بفاقوس، والفجر قد هم أن يشق ثوب الصباح، لولا أن الثريا تعرضت تعرض أثناء الوشاح، وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة، بلغه الله فيه أمله، وقبل عمله بالغا أسنى المراد وأفضله».

وقال ابن الاثير : ولما توفي نور الدين قال الأمراء منهم شمس الدين ابن المقدم، وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحي وغيرهما من أكابر الأمراء: قد علمتم أن صلاح الدين من ممالك نور الدين ونوابه، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعه، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح، فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا، قال: فلم يمض

غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يهنيه بالملك ويعزیه بأبيه، وأرسل دنانير مصرية، وعليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لوالده، فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين، وملك الديار الجزرية، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء إلى صلاح الدين ولا أعلموه الحال، كتب إلى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته، ويمنعه، وكتب إلى الأمراء يقول: «إن الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته بي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده، والقيام بخدمته سواي وأراكم قد تفرّدتُم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني، فسوف أصل إلى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصالحه، حتى أخذت بلاده».

فأقام الصالح بدمشق، ومعه جماعة من الأمراء لم يمكنوه من المسير إلى حلب لثلا يغلبهم عليه شمس الدين علي بن الداية، فإنه كان أكبر الأمراء النورية، وإنما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه، وكان هو وأخوته بحلب وأمرها إليهم وعسكرها معهم في حياة نور الدين وبعده، ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعو إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه، وأرسل إلى الأمراء يقول لهم: «إن سيف الدين قد ملك إلى الفرات، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب حتى يجمع العساكر ويسترد ما أخذ منه وإلا عبر سيف الدين الفرات إلى حلب، ولا نقوى على منعه». فلم يرسلوه ولا مكنوه من قصد حلب.

قال: وكان نور الدين من قبل أن يمرض، قد أرسل إلى البلاد الشرقية

كالموصل وغيرها استدعى العساكر منها فسار سيف الدين، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبر بموت عمه نور الدين، فعاد إلى نصبيين فملكها، وأرسل الشحن إلى الخابور، فاستولوا عليها، وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام، ثم أخذها وملك الرها والرقه وسروج، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر، فقال له فخر الدين عبد المسيح — وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين، وقصد سيف الدين ظناً منه أن سيف الدين يرعى له خدمته وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أولاً — فلم يجن ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء: ليس بالشام من يمنعك، فاعبر الفرات وأملك البلاد، فأشار أمير آخر معه، وهو أكبر أمرائه: قد ملكت أكثر من والدك والمصلحة أن تعود، فرجع إلى الموصل.

فصل

قال ابن الاثير: قد سبق أن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزداراً له وهو سعد الدين كمشتكين بعض خدمه الخصيان، فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدّمته على مرحلة، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدرك، فنهب بركه ودوابه، وسار إلى حلب وتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وأخوته، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح، فسار إلى دمشق فأخرج إليه ابن المقدم عسكرياً لينهبه، فعاد منهزماً إلى حلب فأخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أخذ منه، وجهزه وسيره إلى دمشق، وعلى نفسها تجني براقش، فلما وصلها سعد الدين دخلها واجتمع بالملك الصالح والأمراء، وأعلمهم ما في قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح، فأجابوا إلى تسييره، فسار إليها فلما وصلها

وصعد إلى قلعتها قبض الخادم سعد الدين على شمس الدين بن الداية وأخوته، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب.

قال ابن الاثير: ولو لا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء، وكان أمر الله قدراً مقدوراً فاستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق، فلم يفعل، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق، فيمنع عنها ويقصده ابن عمه من وراء ظهره فلا يمكنه الثبات، فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ما أخذ من يده، وبقي الملك الصالح بحلب، وسعد الدين بين يديه يدبر أمره، وتمكن منه تمكناً عظيماً يقارب الحجر عليه.

قال العماد: كان كمشتكين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه واستأذن في الوصول إلى الشام، فطلب سيف الدين غازي رضاه، وخرج وسار مرحلتين، وسمع النعي، فأغذ السير والسعي، ونجا بهاله وبحاله، وندم صاحب الموصل على الرضى بترحاله، وكانت عنده بوفاة عمه بشاره، وظهرت على صفحاته منها أماره، فإنه لم يزل من كمشتكين متشكياً، فإنه كان لجمر الأمر عليه مذكياً، وكان المرحوم قد أمر بإراقة الخمر، وإزالة المحظور، واسقاط المكوس، واعداد اقساط البوس، فنودي في الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة في الشرب جهاراً ليلاً ونهاراً، وزال العرف وعاد النكر، وأنشد قول ابن هاني: « ولا تسقني سراً فقد أمكن الجهر ».

وقيل أخذ المنادي على يده دنا وعليه قرح وزمر، وزعم أنه خرج بهذا أمر فلا حرج على من يغني ويشرب، وعادت الضرائب، وضربت العوائد، فأما كمشتكين فإنه وصل إلى حلب بعد أن جرى ما جرى،

وتمثل: «عنده الصباح يحمد القوم السرى»، واجتمع هناك بالأمير شمس الدين عليّ بن السداية وأخوته أخوه مجد الدين، وأظهر أنه لهم من المخلصين وكان مجد الدين أبو بكر أخو رضاع نور الدين، وقد تربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده ففوّض إلى مجد الدين جميع مقاصده من طريقه وتالده، وحكمه في الملك، ونظمه في السلك، فلا يجل ولا يعقد إلا برأيه، وكانت حصونه محصنة، وهو يسكن عنده في قلعة حلب، والحاضر عنده صباحا ومساء إذا طلب، وشيزر مع أخيه شمس الدين علي، وقلعة جعبر وتل باشر مع سابق الدين عثمان، وحارم مع بدر الدين حسن، وعين تاب وعزاز وغيرهما نوابه فيها، وهو يصونها ويحميها، ولما توفي جرت أخوته في القرب والانبساط على عادته، وهم أعيان الدولة وأعضاها، وأبدال أرضها وأوتادها، وأجوادها، فلما توفي نور الدين لم يشكوا في أنهم يكفلون ولده ويربونه ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه، فأقام شمس الدين علي وهو أكبرهم وأوجههم، ودخل قلعة حلب وبها والياشاذبخت، وسكنها وأسر مصلحة الدولة وأعلنها، وعرف ما جرى بدمشق من الاجتماع واتفاق ذوي الأطماع، فكاتبهم وأمرهم بالوصول إليه في خدمة الملك الصالح، وانفذ أخاه سابق الدين عثمان وكان قليل الخبرة بعيداً من الدهاء، فاستقر الأمر على أن يحملوا الملك الصالح إليه، ويقدموا به عليه، وهو يتسلم ممالكه، ويكون أتابكته، ووصل كمشتكين إلى دمشق في تلك الأيام، فوافقهم على ما دبروه من المرام، وسار الصالح ومعه كمشتكين والعدل ابن العجمي واسماعيل الخازن، فبغتوا أخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم، وجاء ابن الخشاب أبو الفضل مقدّم الشيعة فسفكوا دمه، وأقام شمس الدين ابن المقدّم بدمشق على عساكرها مقدّماً، وفي مصالحها محكماً، وجمال الدين ريجان والي القلعة والشحن من قبله والأمر إليه بتفصياه وجمله، والقاضي كمال الدين الشهرزوري الحاكم النافذ حكمه، الصائب سهمه، الثاقب نجمه، وكان مسير الملك الصالح من دمشق في الثالث

والعشرين من ذي الحجة، وغازى صلاح الدين ما فعل بأخوة مجد الدين.

وقال ابن أبي طي الحلبي: لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته، واتفقوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصالح بن نور الدين، وكان يومئذ صبياً، وأجمعوا على منابذة الملك الناصر، وقبض أصحابه الذي بالشام، ومصالحة الفرنج على يد ابن المقدم شمس الدين مقدم العساكر، وتم ذلك واستقر، وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له، وكانت الفرنج قد تحركت إلى قصد دمشق، فخرج ابن المقدم ونزل على بانياس في عساكر نور الدين، وراسل الفرنج في الهدنة فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجل حملها، وتم أمر الصلح، وعادت الفرنج إلى بلادها، وابن المقدم إلى دمشق، واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشام، وعلم ضعفهم، فراسل ابن المقدم وغيره من الأمراء بانكار ذلك والتوبيخ عليه، وقال في كتابه إلى ابن أبي عصرون: « ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين، وبقية بلاد المسلمين ما دخلت في العقد ولا انتظمت في سلك هذا القصد، والعدو لهما واحد، وصرف مال الله الذي أعد لمغنم الطاعة ومصلحة الجماعة في هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحى الأمة، وكان مذخوراً لكشف الغمه، فصار عوناً، وإن أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأهم شديده وشوكتهم حديده، دفعوا في القطيعة، وجعلوا إلى السلم السبب والذريعة، فلما بلغنا هذا الخبر وقفنا به بين الورد والصدر، وإن أتمنا ظن بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدو من بقية الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد، وإن فرقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد، فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وأخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه أمر ربما عجز فيه عن الاستدراك، وإن العدو طالب لا يغفل، وجاد لا ينكل، وليث لا يضيع الفرصه، مجد لا يميل إلى الرخصه، فإن كانت الجماعة ساخطين فتظهر امارات السخط والتغيير ولا تمسك

في الأول فتعجز عن الأخير، لاسيما ونحن نغار الله ونغير، ونقصد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير، وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفاً أن يقصد العدو ناحية حارم بالمال الذي قويت به قوته، وثرث به ثروته، وانبسطت به خطوته فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجتمعون لا يمكنه أن يزايل مراكزه، ولا يبادر مناهزه».

قال: وكان متولي قلعة حلب شاذبخت الخادم النوري، وكان شمس الدين علي أخو مجد الدين بن الداية إليه أمور الجيش والديوان، وإلى أخيه بدر الدين حسن الشحنكية، وكان بيده ويد أخوته جميع المعاقل التي حول حلب، فلما بلغ عليا موت نور الدين سعد إلى القلعة، وكان مقعداً، واضطرب البلد، ثم سكنه ابن الخشاب فامتنع من الصعود إليهم، وترددت بينهم الرسالة وتحزب الناس بحلب أهل السنة مع بني الداية، والشيعية مع ابن الخشاب، وجرت أسباب اقتضت أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعين وأهل الحاضر، وزحفوا إلى دار ابن

الخشاب فملكوها ونهبوها واختفى ابن الخشاب، واتصلت هذه الأخبار بمن في دمشق فأخذوا الملك الصالح وساروا إلى حلب في الثالث والعشرين من ذي الحجة، وسار مع الملك الصالح سعد الدين كمشتكين وجرديك واسماعيل الخازن، وسابق الدين عثمان بن الداية، وقد وكلت الجماعة به، وهو لا يعلم، وساروا إلى حلب، وخرج الناس إلى لقائهم وكان حسن قد رتب في تلك الليلة جماعة من الحلبيين ليصبح ويصلبهم، فلما خرج إلى لقاء الملك الصالح ووقعت عينه عليه ترجل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدم جرديك وأخذ بيده وشتمه وجذبه فأركبه خلفه رديفاً، وقبض سابق الدين أخوه في الحال، وتخطفت أصحابهم جميعهم، واحتيط عليهم وساروا مجددين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة، وصعدوا إليها وقبضوا على شمس الدين علي بن الداية من فراشه وحمل إلى بين يدي الملك الصالح، فاستقبله أحد مماليك نور

الدين المعروف بالجفينة فركله برجله ركلة دحائها على وجهه، فانشقت
جبهته، ثم صفدوا جميعاً وحبسوا في جب القلعة، وقبضوا على جميع
الأجناد الذين حلفوا لأولاد الداية، وأخرجوا جميعاً من القلعة.

قلت: وفي آخر هذه السنة توفي مري الفرنجي الملك الذي كان
حاصر القاهرة، وأشرف على أخذ الديار المصرية، وفي كتاب فاضلي: «
ورد كتاب من الداروم يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة
هلك مري ملك الفرنج لعنه الله، ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً،
وأقدمه على نار (تلظى لا يصلها إلا الأشقى) (١٤٠)

ثم دخلت سنة سبعين وخمسةائة

قال ابن أبي طي: ففي أولها ضمن القطب ابن العجمي أبو صالح، وابن أمين الدولة لجرديك إن قتل ابن الخشاب، ردّوا عليه جميع ما نهب له في دار ابن أمين الدولة، فدخل على الملك الصالح، وتحدّث معه وأخذ خاتمه أمانا لابن الخشاب، ونودي عليه فحضر وركب إلى القلعة، فقتل وعلق رأسه على أحد أبراج القلعة .

وبقي الملك الصالح في قلعة حلب، ومضى العماد الكاتب إلى الموصل، قال: « وعزمت على خدمة سيف الدين صاحبها وقد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حدّ الفرات، ومضى إليه ابن العجمي للإصلاح فأصلح بين ابني العم، وعلق رهن أخوة مجد الدين في الاعتقال، وضيقوا عليهم في القيود والأغلال، وألزموهم بتسليم الحصون، وتقديم الرهون إلى أن غصبوا دورهم، وخرّبوا معمرهم» .

قال: وكان الموفق خالد بن القيسراني قد وصل ونحن بدمشق من مصر، فلزم داره، ولم يدخل مع القوم، فأما صلاح الدين فإنه اعتقد أن ولد نور الدين يتولاه بعده أخوة مجد الدين، فلما جرى ما جرى ساءه ذلك وقال: أنا أحق برعي العهود، والسعي المحمود فإنه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعه، وضافت المناهج المتسعه، وانفردت مصر عن الشام، وطمع أهل الكفر في بلاد الاسلام، وكتب إلى ابن المقدم ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة، وكيف اجتروا على أعضاء الدولة وأركانها، بل أهلها وأخوانها، وإنه يلزمه أمرهم وأمرها ويضره ضرهم وضرها، فكتب ابن المقدم إليه يردعه عن هذه العزيمه، ويقبح له استحسان هذه الشيمه ويقول له: «لا يقال عنك إنك طمعت في بيت من غرسك، ورباك وأسسك، وأصفي مشربك، وأصفي ملبسك، وأجلى سكونك لملك مصر، وفي دسته أجلسك، فما يليق بحالك، ومحاسن

أخلاقك وخلالك غير فضلك وأفضالك». فكتب إليه صلاح الدين بالانشاء الفاضلي « إنا لانؤثر للاسلام وأهله إلا ما جمع شملهم، وألف كلمتهم، وللبيت الأتابكي أعلاه الله إلا ما حفظ أصله وفرعه، ودفع ضره وجلب نفعه، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاء، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة، وبالجملة أنا في واد والظانون بنا ظن السوء في واد، ولنا من الصلاح مراد، ولمن يبعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولمن ألقى السلاح إنك جارج».

فصل

قال العماد: ثم عزم السلطان على أن يسارع إلى تلافي الأمر فاعترضه أمران: أحدهما وصول اسطول صقلية إلى الاسكندرية وادراكه، والثاني نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه، أما وصول الاسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين، وانهمز في أول المحرم سنة سبعين، ثم ذكر كتاباً وصل من صلاح الدين إلى بعض الأمراء بالشام يشرح الحال، وحاصله أن أول الأسطول وصل وقت الظهر، ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر لا على حين خفاء من الخبر، فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر، وروع به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربية، وهدد به في الجزائر الرومية صاحب قسطنطينيه، فشوهد في الثغر من وفور عدته، وكثرة عدته، وعظيم الهمة به، وفرط الاستكثار منه، ما ملأ البحر، واشتد به الأمر، فحمى أهل الثغر عليهم البر، ثم أشير عليهم أن يقربوا من السور فأمكن الأسطول النزول فاستنزلوا خيولهم من الطرائد، وراجلهم من المراكب، فكانت الخيل ألفاً وخمسمائة رأس، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل، ما بين فارس وراجل، وكانت عدّة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل

الخييل، وكان معهم مائتا شيني في كل شيني مائة وخمسون راجلاً، وكانت عدّة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدّة المراكب الحمالة برسم الأزواد والرجال أربعين مركباً، وفيها من الراجل المتفرق وغللمان الخيالة، وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ما يتم خمسين ألف رجل، ولما تكاملوا نازلين على البر خارجين من البحر، حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور، وفقد من أهل الثغر في وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس، واستشهد محمود بن البصار بسهم جرح وجذفت مراكب الفرنج داخلية إلى المينا، وكان به مراكب مقاتله، ومراكب مسافره، فسبقهم أصحابنا إليها فحسفوها وغرقوها وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها، واتصل القتال إلى المساء فضربوا خيامهم بالبر، وكان عدّتهم ثلاثمائة، فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها وثلاثة مجانيق كبار المقادير، تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية، وتعجب أصحابنا من شدة أثرها وعظم حجرها، وأما الدبابات فإنها تشبه الأبراج في جفاء أخشابها وارتفاعها، وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السور، ولجوا في القتال عامة النهار المذكور، وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الطائر، فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين اسكندرية ودمياط، احترازاً عليها واحتياطاً في أمرها وخوفاً من مخالفة العدو إليها، واستمرّ القتال وقدّمت الدبابات وضربت المنجنيقات، وزاحمت السور إلى أن صارت منه بمقدار أماج البحر، وأهاج الدور، فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبواباً قبالتها من السور ويتركوها معلقة بالقشور، ثم فتحوا الأبواب وتكاثرت صالِح أهل الثغر من كل الجهات فأحرقوا الدبابات المنصوبة، وصدّقوا عندها من القتال، وأنزل الله على المسلمين النصر، وعلى الكفار الخذلان والقهر، واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء، وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهم، وقصرت عزائمهم وقر

حربهم، وأحرقت آلات قتالهم، واستمر القتل والجراح في رجالهم، ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة، وأخذ ما به قوام الحياة، وهم على نية المباكرة، والعدو على نية الهرب والمبادرة، ثم كر المسلمون عليهم بغتة، وقد كاد يختلط الظلام فهاجموهم في الخيام، فتسلموها بها فيها وفتكوا في الرجالة أعظم فتك، وتسلموا الخيالة، ولم يسلم منهم إلا من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه، وتقحم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فحسفوها وأتلفوها فولت بقية المراكب هاربة، وجاءتها أحكام الله الغالبة، وبقي العدو بين قتل وغرق، وأسر وفرق، واحتمى ثلاثمائة فارس منهم في رأس تل، فأخذت خيوطهم، ثم قتلوا وأسروا، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله، واقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس.

وذكر ابن شدّاد أن نزول هذا العدو كان في شهر صفر، وكانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعة ما بين شيني وطراة وبطسة وغير ذلك .

فصل

وأما نوبة الكنز فقال ابن شدّاد: الكنز انسان مقدّم من المصريين كان قد انتزح إلى أسوان فأقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه، ويخيل لهم أنه يملك البلاد، ويعيد الدولة المصرية، وكان في قلوب القوم من المهاوة للمصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خلق كثير، وجمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها، فانتهى خبره إلى صلاح الدين، فجزّد له عسكرياً عظيماً شاكين في السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية، وخافوا على فوت ذلك منهم، وقدم عليهم أخاه سيف الدين، وسار بهم حتى أتى القوم فلقبهم بمصاف

فكسرهم، وقتل منهم خلقاً عظيماً، واستأصل شافتهم، وأخذ نائرتهم، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين، واستقرت قواعد الملك.

قال العماد: وفي أول سنة سبعين مستهلها قام المعروف بالكنز في الصعيد، وجمع من كان في البلاد من السودان والعييد، وعدا ودعا القريب والبعيد، وكان عنده من الأمراء أخ لحسام الدين أبي الهيجاء السمين، ففتك به وبمن هناك من المنقطعين، فغارت حمية أخيه، وثار للثأر، وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك ابن خاله، وعدة من أمرائه ورجاله، وجاؤوا إلى مدينة طود، فاحتمت عليهم وامتنعت، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت، وأتى السيف على أهلها وباءت بعد عزها بذلها، ثم قصد الكنز وهو في طغيانه وعدوانه، وسوءه وسودانه، فسفك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وارتنق دماء سوده، وهجم غابه على أسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز، وطل دمه ولم ينتطح فيه عنز، وارتدع المارقون فما رقوا بعده سلم نفاق، والله لناصري دينه ناصر وواق.

وقال ابن أبي طي: واتفق أيضاً أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شاذي، وثار في بلاد قوص ونهبها وخربها، وأخذ أموال الناس، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكان السلطان قد استنابه بمصر، فجمع له العساكر وأوقع به وبدد شمله، وفض جموعه وقتله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان، وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

فصل

في توجه صلاح الدين إلى دمشق، ودخوله إليها في يوم
الاثنين آخر شهر ربيع الأول

قال العماد: لما خلا باله مما تقدم ذكره تجهز لقصد الشام، فخرج إلى
البركة مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بلبس
ثالث عشر ربيع الأول، وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى
صديق ابن جاوي، وشمس الدين بن المقدم عنده تستوري في الحث
والبعث زنده، وتستقدمه وجنده، وسار على صدر وائله، ووصل السير
بالسرى حتى أناخ على بصرى بصيرا بالعلى نصيرا للهدى، فاستقبله
صاحب بصرى وشدّ أزره، وسدّد أمره، واستضاف إلى بصرى صرخد،
وتفرد بالسبق إلى الخدمة وتوحد، وسار في الخدمة معه إلى الكسوة، وبكر
صلاح الدين يوم الاثنين انسلاخ الشهر، وسار في موكب قوي بالعدد
والعدد وحسب أن يمتنع عليه البلد، وأن الاطراف توثق، والأبواب
تغلق، فأقبل وهو يسوق وإقباله يشوق، حتى دخل دمشق، وخرقها
وكان الله تعالى له خلقها، ودخل إلى دار العقريقي مسكن أبيه، وبقي
جمال الدين ريجان الخادم في القلعة على تأبيه، فراسله حتى استماله،
وأغزر له نواله، وتملك المدينة والقلعة، ونزل بالقلعة سيف الاسلام أخو
السلطان صلاح الدين، وملك ابن المقدم داره وكل ما حوالها، وبذل له
طلبته التي أشار إليها ونص عليها، وأظهر أنه قد جاء لتربية الملك
الصالح، وحفظ ماله من المصالح، وتدبير ملكه، فهو أحق بصيانة حقه،
واجتمع به أعيانها، وخلص لولاية اسرارها واعلانها، وأصبح وهو
سلطانها، وزاره القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري فوفاه حقه من
الإحترام وأوفر له حظ التبجيل والاعظام، ونفذت الكتب بالأمثلة
الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر.

وفي بعضها: «يوم وصولنا إلى بصرى وقبله وفدت وهاجرت وتزاحمت وتكاثرت وتوافت الأمراء والأجناد الأتراك والأكراد والعربان، وراجل الأعمال، وأعيان الرجال، وورد كتاب من دمشق بعد كتاب، وكل مخبر وذاكر، وهو غائب بكتابه حاضر، يذكر أن البلاد ممكنة القياد مدعنة إلى المراد، وأما الفرنج خذلهم الله فإننا في هذه السفرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم، وأقمنا بها إقامة الحاضر المتخيم، وعيونهم متناومة، وجزنا وأنوفهم راغمة، ووطننا ورقابهم صغر، ومررنا وعيشهم مر، والله يزيدهم ذلاً، ويجعل عداوة الاسلام في صدورهم غلاً، وفي أعناقهم غلاً».

وفي كتاب آخر: «وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول، وقد توجه صاحبها بين أيدينا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها، ثم لقينا الأجل ناصر الدين ابن المولى أسد الدين رحمة الله عليه، وأدام نعمته، والأمير سعد الدين ابن أنر في يوم السبت السابع والعشرين، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب، والأجناد الدمشقية إلينا متوافيه، والوجوه على أبوابنا مترامية، ولم يتأخر إلّا من أبقى وجهه، وراقب صاحبه، ومن اعتقد بالعودة أنه قد نظر لنفسه في العاقبة، ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى، وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم وعرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم، ودخلنا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليه قرية عيوننا مستقرا سكون الرعية وسكوننا، وأذعنا في أرجاء البلد النداء بإطابة النفوس، وإزالة المكوس، وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت، واليد المتعدية قد امتدت إلى أحوالهم وأجحففت، فشرعنا في امتثال أمر الشرع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها».

قال ابن الاثير: لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم كمشتكين والملك الصالح من حلب فيعاملهم بها عامل به بني الداية

راسلوا سيف الدين غازي ليسلموها إليه، فلم يجبهم فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدم، ومن أشبه أباه فما ظلم، فلما أتته الرسل لم يتوقف وسار إلى الشام، فلما وصل دمشق سلمها إليه من بها من الأمراء، ودخلها واستقر بها، ولم يقطع خطبة الملك الصالح، وإنما أظهر أي إننا جئت لأخدمه واسترد له بلاده التي أخذها ابن عمه، وجرت أمور آخرها أنه اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح على ما بيده.

وقال القاضي ابن شداد: لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين، وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك، ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد، تجهز للخروج إلى الشام، إذ هو أصل بلاد الاسلام، فتجهز بجمع كثير من العساكر، وخلف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها، ونظم أمورها وسياستها، وخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه، وهو يكتب أهل البلاد وأمراءها، واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح، واختلفت تدبيراتهم وخاف بعضهم من بعض، وقبض البعض على جماعة منهم، وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك، وسبباً لتنفير قلوب الناس عن الصبي، فاقتضى الحال أن كاتب ابن المقدم صلاح الدين، فوصل إلى البلاد مطالباً بالملك الصالح فيكون هو الذي يتولى أمره ويرب حاله، فدخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر، وكان أول دخوله إلى دار أبيه واجتمع الناس إليه، وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالا طائلاً، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين، وأظهروا الفرح به وصعد القلعة، واستقر قدمه في ملكها، فلم يلبث أن سار في طلب حلب، فنازل حمص، وأخذ مدينتها في جمادى الأولى ولم يشتغل بقلعتها، وسار حتى أتى حلب، ونازلها سلخ جمادى المذكور وهي الدفعة الأولى.

وقال ابن أبي طي: بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب الموصل

واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في مملكه، وقيل إن ابن المقدم كاتب السلطان ودعاه إلى الخروج، وقيل إنها خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام، وشغل بعضهم ببعض، وبجواب ممض ورد من ابن المقدم، ولما تيقن ابن المقدم خروج السلطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك، واستدرك ما بدا منه، وتذلل له، ووعدته تسليم دمشق إليه.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها، نشر علم العدل والإحسان، وعفى آثار الظلم والعدوان، وأبطل ما كان الولاية استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمون والضرائب المحرّمات.

قلت: وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها:

تهنّ يا أطول الملوك يدا
في بسط عدل وسطوة وندي
أجرا وذكرا من ذلك الشكر في الـ
دنيا ومن ذلك الجنان غدا
لا تستقل الذي صنعت فقد
قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدى وأفنيت من
أبطالهم ما يجاوز العدا
ومار أين اغزا الفرنج من الـ
ملوك في عقر دارهم أحدا
فسر إلى الشام فالملائكة الـ
أبرار تلقاك ملتقى حمدا
فهو فقير إليك يا أمل أن
تصلح بالعدل منه ما فسد

والله يعطيك فيه عاقبة الـ
نصر كما في كتابه وعدا
فما حباك النورى وألهمك الـ
عدل وأعطاك ما ملكت سدى (١٤١)

ومدح وحيش الأسدى صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أولها:
قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا
فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد
أدنى فريسته الأيام أن وثبا
رأيت جلق ثغرا لا نظير له
فجنتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قلل ناصرها
وأزعم الخلق من أوطانها حربا
أحييتهم مثل ما أحييت مصر فقد
أعدت من عدلها ما كان قد ذهب
هذا الذي نصر الاسلام فاتضح
سبيله وأهان الكفر والصلبا
ويوم شاوور والايان قد هزمت
جيوشه كان فيه الجحفل اللجبا
أبت له الضيم نفس مرة ويد
فعالة وفؤاد قط ما وجبا
يستكثر المدح يتلى في مكارمه
زهداً ويستصغر الدنيا إذا وهبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد
أصارهم مثلاً في الأرض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست
آثاره وعفت آياته حقباً

فصل

فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماه وحصار حلب

قال ابن أبي طي: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر، وميل الناس إليه وإنعكافهم عليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته فحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أزعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا والرماح التي حوت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك، وعمّا تصدّيت له تصدّك، وأنت فقد تعدّيت طورك، وتجاوزت حدّك، وأنت أحد غلمان نور الدين، وممن يجب عليه حفظه في ولده.

قال: ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولاً تلقاه بموكبه وبنفسه، وبالغ في إكرامه والاحسان إليه، ثم أحضره بعد ثلاثة لسماع الرسالة منه، فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطلة، وقعقع بتلك التسمويّات العاطلة، لم يعره السلطان رحمه الله طرفاً ولا سمعاً، ولا ردّ عليه خفضاً ولا رفعا، بل ضرب عنه صفحا وتغاضيا، وترك جوابه احسانا وتجاфия، وجرى في ميدان أريحيته واستن في سنن مروّته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له: يا هذا اعلم إنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الاسلام، وتهذيب الأمور وحياطة الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين، فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك ودون ما ترومه خرط القتاد، وفت الأكباد، وإيتام الأولاد، فلم يلتفت السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله وأومى إلى رجاله باقامته من بين يديه بعد أن كاد يسطو عليه، ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشام الأسفل، ورحل متوجهاً إلى حمص، فتسلم البلد وقاتل القلعة، ولم ير تضييع الزمان عليها، فوكل بها

من يحصرها ورحل إلى جهة حماه فلما وصل إلى الرستن، خرج صاحبها عز الدين جرديك، وأمر من فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره، وسار جرديك حتى لقي السلطان واجتمع به بالرستن، وأقام عنده يوماً وليلة، وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سلم إليه حماه وسأله أن يكون السفير بينه وبين من بحلب، فأجابهُ السلطان إلى مراده، وسار إلى حلب، وبقي أخو جرديك بقلعة حماه.

قال: وسار جرديك إلى حلب وهو ظان أنه قد فعل شيئاً، وحصل عند من بحلب يدا، فاجتمع بالأمراء والملك الصالح وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر، فاتهمه الأمراء بالمخامرة، وردوا مشورته، وأشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح وليج سعد الدين كمشتكين في القبض عليه، فقبض وثقل بالحديد، وأخذ بالعذاب الشديد، وحمل إلى الجب الذي فيه أولاد الداية.

قال: ولما قدّم جرديك وشدّ في وسطه الحبل ودلي إلى الجب، وأحس به أولاد الداية قام إليه منه حسن وشتمه أقبح شتم وسبه ألام سب، وحلف بالله إن أنزل إليهم ليقتلنه، فامتنعوا من تدليته، فأعلم سعد الدين كمشتكين فحضر إلى الجب وصاح على حسن وشتمه وتوعده، فسكن حسن وأمسك وأنزل جرديك الجب، فكان عند أولاد الداية، واسمعه حسن كل مكروه.

قال: وكتب أبي إلى حلب حين اتصل به قبض أولاد الداية وجرديك، وكانوا تعصبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب قصيدة منها:

بنو فلانة أعوان الضلالة قد

قضى بـذلهم الأفلاك والقدر

واصبحوا بعد عز الملك في صنف

وقعر مظلمة يغشى لها البصر

وجرد الدهر في جرديك عزمته
والدهر لا ملجأ منه ولا وزر

قال: ولم يزل السلطان مقيماً على الرستن، ثم طال عليه الأمر فسار إلى جباب التركمان فلقيه أحد غلمان جرديك وأخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال والقهر، فرحل السلطان من ساعته عائداً إلى حماه وطلب من أخي جرديك تسليم حماه إليه، وأخبره بما جرى على أخيه، ففعل وصعد السلطان إلى قلعة حماه واعتبر أحوالها وولائها مبارز الدين علي بن أبي الفوارس، وذلك مستهل جمادى الآخرة، وسار السلطان إلى حلب، ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة ثالث الشهر، وامتدت عساكره إلى الخناقية وإلى السعدي، وكان من بحلب يظنون أن السلطان لا يقدم عليهم، فلم يرعهم إلا وعساكره قد نازلت حلب، وخيمه تضرب على جبل جوشن، وأعلامه قد نشرت فخافوا من الحلبين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق، فأرادوا تطيب قلوب العامة فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بنفسه: أنهم الوزر والملجأ، فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس، فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: يا أهل حلب أنا ربيكم ونزيلكم واللاجئ إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب، وشابكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد، قال: وحنقته العبرة وسبقته الدمعة، وعلا نسيجه، فافتتن الناس، وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعائمهم، وضجوا بالبكاء والعويل وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك، وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه، وكانوا قد اشتروا على الملك الصالح أنه يعيد إليهم شرقية الجامع يصلون فيها على قاعدتهم القديمة، وأن يجهر بحبي على خير العمل والأذان والتذكير في الأسواق وقدام الجنائز بأسماء الأئمة الاثني عشر، وأن يصلوا على

أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني، وأن تكون العصبية مرتفعة، والناموس وازع لمن أراد الفتنة وأشياء كثيرة اقترحوها، مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله، فأجيبوا إلى ذلك.

قال ابن أبي طي: فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بحمي علي خير العمل، وصلى أبي في الشرقية مسبلاً، وصلى وجوه الحلبيين خلفه، وذكروا في الأسواق وقدام الجنائز بأسماء الأئمة، وصلوا على الأموات خمس تكبيرات، وأذن للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه، وفعلوا جميع ما وقعت الايمان عليه.

فصل

قال ابن أبي طي: وكانت هذه السنة شديدة البرد، كثيرة الثلوج، عظيمة الأمطار، هائجة الأهوية، وكان السلطان قد جعل أولاد الداية علالة له وسبباً يقطع به السنة من ينكر عليه الخروج إلى الشام، وقصد الملك الصالح، ويقول: أنا إنما أتيت لاستخلاص أولاد الداية، وإصلاح شأنهم، وأرسل السلطان إلى حلب رسولا يعرض بطلب الصلح، فامتنع كمشتكين، فاشتد حينئذ السلطان في قتال البلد، وكانت ليالي الجماعة عند الملك الصالح لاتنقضي إلا بنصب الحبائل للسلطان، والفكرة في مخاتلته، وإرسال المكروه إليه، فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشية في إرصاد المتالف للسلطان، وإرسال من يفتك به، وضمنوا له على ذلك أموالاً جمة وعدة من القرى، فأرسل سنان جماعة من فتاك أصحابه لاغتيال السلطان، فجاءوا إلى جبل جوشن واختلطوا بالعسكر فعرفهم صاحب أبو قبيس، لأنه كان مشاعراً لهم، فقال لهم: يا ويلكم

كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلي فيه؟ فخافوا غائلته، فوثبوا عليه فقتلوه في موضعه، وجاء قوم للدفع عنه فجزّحوا بعضهم، وقتلوا البعض وبدر من الحشيشية أحدهم ويده سكينه مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله، وطلب الباكون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة.

قال: ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية، كاتبوا قمص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل السلطان عن حلب، وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين، فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزعفراني حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار، وفكك ألف أسير، واتفق في أول هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما، فتكفل هذا القمص بأمر ولده المجدوم، فعظم شأنه وزاد خطرته، فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين، وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة، فقال السلطان لست بمن يهرب بتألب الفرنج، وما أنا سائر إليهم، ثم أنهد قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكية فغنموا غنيمة حسنة وعادوا، فقصد القمص جهة حمص، فرحل السلطان من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعاً إلى بلاده وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب ووصل إلى حمص، فتسلم القلعة ورتب فيها والياً من قبله.

قال: وفي فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة وستأتي:

إياب ابن أيوب نحو الشأ

م على كل ما يرتجيه ظهور

يوسف مصر وأيامه

تقر العيون وتشفى الصدور

رأت منك حمص لها كافيًا
فواتاك منها القوي العسير

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى زين الدين بن نجا الواعظ يقول في وصف قلعة حمص: «والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجماً في سحاب، وعقاباً في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامه، عاقدة حبوة صالحها الدهر على أن لا يجلها بقعره، عاهدة عصمة صافحها الزمن على أن لا يروعها بخلعه، فاكتنفت بها عقارب، منجنيقات لا تطبع طبع حمص في العقارب، وضربت حجارة بها الحجارة، فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب، فلم يكن غير ثالثة من الحدّ إلاّ وقد أثرت فيها جدر يا يضرها، ولم تصل السابع إلا والبحران منذر نقبها، واتسع الخرق على الراقع، وسقط سعداها عن الطالع إلى مولد هو إليها الطالع، وفتحت الأبراج فكانت أبواباً (وسيرت الجبال) بها (فكانت سرايا) (١٤٢) فهنالك بدت نقوب يرى قائم من دونها ما وراءها، وحشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى أخيه العادل: «قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحدّ الذي يخرج عن العد، وبعد أن نرتب أحوال حمص حرسها الله، نتوجه إلى حماه، والله المعين على ما ننويه من الرشاد، وننظفه من طرق الجهاد».

وقال العماد: لما سمع المدبرون للملك الصالح بإقبال صلاح الدين المؤذن بإدبارهم، سقط في أيديهم، وراسلوا المواصلة، وكتبوهم وأرسلوا إلى صلاح الدين بالاغلاظ والاحفاظ، وكان الواصل منهم قطب الدين ينال بن حسان، وقال له: هذه السيوف التي ملكتك مصر، وأشار إلى

سيفه، إليها تردك، وعمّا تصدّيت له تصدّك، فحلّم عنه السلطان، واحتمله وتغافل كرماً وأغفله، وخاطبه بما أبى أن يقبله، وذكر أنه وصل لترتيب الأمور وتهذيب الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين، واستنقاذ أخوة مجد الدين، فقال له: أنت تريد الملك لنفسك، ونحن لا ننزع في قوسك، ولا نأنس بأنسك، ولا نرتاع لجرسك، ولا نبني على أسك، فارجع حيث جئت أو اجهد واصنع ما شئت، ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع، ولا تطلع حيث ما لسعودك فيه مطمع، ونال من تقطيب القطب ينال كل ما أحال الحال، وأبلى البال، وأبدى له التبسم، وأخفى الاهتال، ثم إنه استناب أخاه سيف الاسلام طغتكين بدمشق، وسار بالعسكر ونزل على حمص فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى، وامتنعت القلعة فأقام عليها من يحصرها، ورحل إلى حماه فأخذها مستهل جمادى الآخرة، ثم مضى ونزل على حلب فحصرها ثالث الشهر، فلما اشتدّ على الحلبيين الحصار، وأعوزهم الانتصار، استغاثوا بالاسماعيلية وعينوا لهم ضياعاً، وبدلوا لهم من البذول أنواعاً، فجاء منهم في يوم بارد شات من فتاكهم كل عات، فعرفهم الأمير ناصح الدين خمار تكين صاحب أبو قبيس، وكان مشاغراً للاسماعيلية، فقال لهم: لأي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتهم، فقتلوه وجاء من يدفع عنه فأثخنوه، وعدا أحدهم ليهجم على السلطان في مقامه، وقد شهر سكين انتقامه، وطغريل أمير جاندار واقف ثابت ساكن ساكت، حتى وصل إليه فشمّل بالسيف رأسه، وما قتل الباقون حتى قتلوا عدة، ولاقى من لاقاهم شدة، وعصم الله حشاشته في تلك النوبة من سكاكين الحشيشية، فأقام إلى مستهل رجب، ثم رحل إلى حمص بسبب أن الحلبيين كاتبوا قمص طرابلس، وقد كان في أسر نور الدين مذكرة حارم، وبقي في الأسر أكثر من عشر سنين، ثم فدا نفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينار، وفكّك ألف أسير، فتوجه في الافرنجية إلى حمص، فلما سمع بالسلطان رجع ناكصاً على عقبيه مخوفاً مما يقع فيه ويتم عليه.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى العادل: « قد اعلمنا المجلس أن العدو خذله الله كان الحليون قد استنجدوا بصليبائهم، واستصالوا على الاسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى بلد حمص، فوردنا حماه، وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقائه، فسار إلى حصن الأكراد متعلقا بجبله، متفحصاً بحيله، وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب، وظفر وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب، فإن العدو قد سقطت حشمته، وانحطت فيه همته، وولى ظهراً كان صدره يصونه، ونكس صليباً كانت ترفعه شياطينه».

وقال العماد في الخريدة: لما خيم السلطان بظاهر حمص قصده المهذب ابن أسعد بقصيدة أولها:

مانام بعدالين يستحلي الكرى
إلا يطرقه الخيال إذا سرى

كلف بقر بكم فلما عاقه
بعد المدى سلك الطريق الأخصرا
ومودع أمر التفريق دمعته
ونته رقبته كاشح فتحيرا

ومنها في المديح:
تردي الكتاب كتبه فإذا غدت
لم يدرا أنفساً أسطر أم عسكرا
لم يحسن الأتراب فوق سطورها
إلا لأن الجيش يعقده عشرها

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين بهذا الذي يقول: « والشعر ما زال عند الترك متروكا» فعجل جائزته لتكذيب قوله، وتصديق ظنه،

فشرفه وجمع له بين الخلعة والصنعة، وعن الفاضل ما قاله في قصيدة في مدح الصالح بن رزيك التي أولها : « أما كفاك تلافى في تلافيكاً ».

يقول فيها
يا كعبة الجود إن الفخر أقمه
ورقة الحال عن مفروض حجيكاً
من ارتجى يا كريم الدهر ينعشني
جدواه إن خاب سعي في رجائيكاً
أمدح الترك أبغي الفضل عندهم
والشعر ما زال عند الترك متروكاً
أم أمدح السوقة النوكى لرفدهم
واضيعتا إن تخطتني أياديكاً
لا تركني وما أملت في سفري
سواك أقفل نحو الأهل صعلوكاً

قلت: وقد مضى ذكر ابن أسعد هذا في أخبار سنة ثمان وخمسين، وسيأتي من شعره أيضاً في أخبار سنة ست وسبعين وثمان وسبعين، وما أحسن ما خرج ابن الدهان من الغزل إلى مدح ابن رزيك في قوله من قصيدة أولها :

إذا لاح برق من جنابك لامع
أضياء لسواش ما تجن الأضالع

يقول فيها:
تمادى بنا في جاهلية نحلها
وقد قام بالمعروف في الناس شارع
وتحسب ليل الشح يمتدّ بعدما
بدا طالعا شمس السخاء طابع (١٤٣)

فصل

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضا إلى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضي الفاضل كتاباً طويلاً رائقاً فائقاً يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادي من جهاد الأفرنج في حياة نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد حجة من أطراف المغرب، وإقامه الخطبة العباسية بها يقول في أوله للرسول : «فإذا قضى التسليم حق اللقاء، واستدعى الاخلاص جهد الدعاء، فليعد وليعد حوادث ما كانت حديثاً يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثر منه ما قد جرى، وليشرح صدرأ، منها لعله يشرح منا صدرا، وليوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يعبد سرا.

ومن الغرائب أن تسير غرائب

في الأرض لم يعلم بها المأمول

كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى

والماء فوق ظهرها محمول

فإننا كنا نقبس النار بأكفنا، وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا، وسوانا يستمير، ونلقى السهام بنحورنا، وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصفاح بصدورنا، وغيرنا يدعي التصدير، ولا بد أن نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذي تردّ به الغصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب، وما كان العائق إلا أنا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وانجابا للحق يشاكل انجابنا للسبق، وكان أول أمرنا أنا كنا في الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا في أي مدينة فتحت أو معقل ملك أو عسكر للعدو كسر، أو مصاف للاسلام معه ضرب، فما يجهل أحد صنعنا، ولا يجحد عدونا أنا نصطي الجمرة، ونملك الكره، ونتقدم الجماعه، ونرتب المقاتله، وندبر

التعبيه إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجزها، ولا يضرنا أن يكون
غيرنا ذكرها، وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من
سوء تدبير، وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير، وإن النظام بها قد
فسد، والإسلام بها قد ضعف عن إقامة كل من قام وقعد، والفرنج قد
احتاج من يدبرها إلى أن يقطعهم بأموال كثيرة، لها مقادير خطيرة، وإن
كلمة السنة بها وإن كانت مجموعها فإنها مضمومة، وأحكام الشريعة وإن
كانت مسماها فإنها متحاماها، وتلك البدع بها على ما يعلم، وتلك
الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم، وذلك المذهب
قد خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد
من دون الله وتعظم وتفخم، فتعالى الله عن شبه العباد، وويل لمن غره
تقلب الذين كفروا في البلاد، فسمت همتنا دون هم أهل الأرض إلى أن
نستفتح مقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالته
منها، فسرنا إليها في عساكر ضخمه، وجموع جمه، وبأموال انتهكت
الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذمنا وكسب أيدينا،
وئمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا، فعرضت عوارض منعت،
وتوجهت للمصريين رسل باستنجد الفرنج قطعت (لكل أجل كتاب)
(١٤٤)، ولكل أمل باب، وكان في تقدير الله أنا نملكها على الوجه
الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فغدر الفرنج بالمصريين
غدره في هدنة عظم خطبها وخطبها، وعلم أن استتصال كلمة الإسلام
محطها، فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان كما كاتبنا بالعساكر
المجموعة والأمراء والأهل المعروفة إلى بلاد قد تمهد لنا بها أمران، وتقرر لنا
في القلوب ودان: الأول ما علموه من إثارتنا للمذهب الأقوم، وإحياء
الحق الأقدم، والآخر ما يرجونه من فك أسارهم، وإقالة عثارهم، ففعل
الله ما هو أهله، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حبله، وضاق به سبله،
وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورسايقها وبلادها وأقاليمها قد
نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صلبانه، ونصبت بها أوثانه، وأيس من

أن يسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يستنقذ ما صار في ملكهم داخلاً، ووصلنا البلاد، وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الاسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف، كلهم أعتام أعجام، إن هم إلا كالانعام لا يعرفون رباً إلا ساكن قصره، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية، موضوعة عنهم الجزية، كانت لهم شوكة وشكة، وحمة وحمية، ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله، وتصيب القلوب مخاتله، ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل، وخذام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل، ودولة قد كبر نملها الصغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع ما يكنه الضمير، فكيف بخطوات التدبير، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائره، وتحريف للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكفر سمي بغير اسمه، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، وتحييفهم تحيف الليل والنهار، فعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير، وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج دفعة إلى بلبس ودفعة إلى دمياط، وفي كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهز، والحشد الأوفر، وخصوصاً في نوبة دمياط فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب مقاتل وحامل، وبراً في مائتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يياكرونها ويراوحوها ويصابحوها القتال الذي يصلبه الصليب، والقراع الذي ينادي به الموت من مكان قريب، ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر، ونصابر الضدين المنافق والكافر حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد

فأخرجناهم من القاهرة تارة بالأوامر المرهقة لهم وتارة بالأمر الفاضحة منهم، وطوراً بالسيوف المجردة وبالنار المحرقة، حتى بقي القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفرقت شيعه، وتمزقت بدعه، وخفت دعوته، وخفيت ضلالتة، فهناك تم لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة، والرفع للواء الأسود الأعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه وفنائه، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنتها أيسر من إثم إبقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته، ولما خلا ذرعنا، ورحب وسعنا، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكفار، فلم تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها برأً وبحراً مركباً وظهراً إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسراً، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها منذ أخذت من أيديهم، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم منذ ملكها أعاديهم، فمنها ما حكمت فيه يد الخراب، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب، ومنها قلعة بثغر ايلة، كان العدو قد بناها في بحر الهند، وهو السلوك منه إلى الحرمين واليمن وغزا ساحل الحرم فساء منه خلقاً، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها، ومقام الخليل عليه السلام أن يقوم به من ناره غير برد وسلام، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام، فأخذت هذه القلعة، وصارت معقلاً للجهاد وموتلاً لسفار البلاد وغيرهم من عباد العباد.

ثم قال: «وكان باليمن ما علم من أمر ابن مهدي الضال الملحد المبدع المتمرد، وله آثار في الإسلام وثار طالبه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه سبى الشرائف الصالحات، وباعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس، ودان ببدعه، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة، وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها، وأحل الفروج المحرمة وأباحها، فانهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة، واسلحة رائعة، وسار فأخذناه والله الحمد، وأنجز الله فيه القصد،

والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند ساميه، وإلى ما يفتض الاسلام عذرتة متهاديه، ولنا في الغرب أثر أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك، كما يكون المهلك دون المطلب، وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر، وملكهم قد عمر، وجيوشهم لا تطاق، وأمرهم لا يشاق، ونحن بحمد الله قد تملكنا بما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا إليها عسكرياً بعد عسكري، فرجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: برقة، قفصه، قسطيليه، توزر، كل هذا تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين سلام الله عليه، ولا عهد للاسلام باقامتها وتنفيذها فيها الاحكام بعلمها المنصور وعلامتها، وفي هذه السنة كان عندنا وقد شاهده وفود الامصار، ورموه بأسباع وأبصار مقداره سبعون ركباً كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسيرنا الخلع والمناشير والألويه بما فيها من الأوامر والأقضية، فأما الأعداء المحذقون بهذه البلاد، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام، والعزائم الشداد، فمنهم صاحب قسطنطينيه، وهو الطاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت، جرت لنا معه غزوات بحريه، ومناقلات ظاهرة وسريه، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح، وإلقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهاداه، ومن مفاضحة إلى مناصحه، حتى أنه انذر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردّد ذكرها وعساكره التي لم يخف أمرها، ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وقسرا وهزما وكسرا، أراد أن يظهر قوته المستقلة فعمر أسطولا يستوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين تكثر عدّته وتتنخب عدّته، إلى أن وصل منها في السنة

الخالية إلى الاسكندرية أمر رائع وخطب هائل، وما أثقل ظهر البحر مثل حملة، ولا ملاً صدره مثل خيله ورجله، وما هو إلا إقليم بل أقاليم يقله، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لو لا أن الله خذله، ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفاراً يحتكمون على الاسلام في الأموال المجلوبه، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبه، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا باهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قرّرت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون، ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية، وكنا في تلك السنة على نية الغزاة والعساكر قد تجهزت والمضارب قد برزت، ونزل الفرنج على بانياس وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فرصة مدّوا يد انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فرنا مراحل اتصل بالعدوّ أمرها، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لو لا مسيرنا ما انتظم حكمها، ثم عدنا إلى البلاد، وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتخوفون بها الأطراف الاسلاميه، ويضايقون بها البلاد الشاميه، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصدوروا، والمهاليك إلا عماد الدين خلقوا للأطراف للصدور، وجعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدّوا الأيدي والأعين والسيوف، وسارت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً، وعلمنا أن البيت المقدّس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه وأمر الكفر إن لم نجرد العزم في قلعه وإلا نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمه، وهم القادرين بالقعود دائمة، وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوّه، وإذا جاورناه كانت المصلحة باديه، والمنفعة

جامعه، واليد قادره، والبلاد قريبه، والغزوة ممكنه، والميرة متسعه، والخيل مستريحه، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعده، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتله، وأمور مختله، وأراء فاسده، وأمراء متحاسده، وأطماع غالبه، وعقول غائبه، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه فما نابه أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويظهرون الوفاء في خدمته وهم عاملون بظلمه، والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الالفه، ويضمن الرأفه، ويفتح بقية البلاد، وأن يطبق الاسم العباسي كل ما تطبقه العهاد، وهو تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام، وكلما تشتمل عليه الولاية النورية وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيفونا وسيف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا تقليداً يضمن للنعمه تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعم به من السمات التي فيها الملك، وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لا يمل الشر حتى يملوا، وقرنا لا يزال محرم السيف حتى يملوا، وإذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مؤمن تحت برده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى الديوان في تعداد ماله من الأيادي: « والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دوّخها، وسنن الضلال التي نسخها، وعقود الاحاد التي فسخها، ومنابر الباطل التي رخصها، وحجج الزندقة التي دحضها فله عليه المنة فيه إذ أهله لشرف مشهده، وما فعله إلا لوجهه، ويد الله كانت عون يده، وإلا فقد قضت الليالي والأيام على تلك الأمور، وما تحركت للفلك في قلعه نابضه، وغيرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضه، فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منها أن يجتهد في أخرى مثلها في الكفار، وقد عاد الاسلام إلى وطنه، وصوّحت من الكفر خضراء دمنه».

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه إعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه: « حتى أتى الدنيا ابن بجدتها، ففضى من الأمر ما قضى، وأسخط من الله في سخطه رضا، وجعل وجهه لآبسي السواد مبيضا، فأدرك لهم بشار نامت عنه الهمم ودوّخت عليه الأمم، وشفى الصدور، وجاء بالحق إلى من غرّه بالله الغرور واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور».

ومن كتاب آخر: « قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الأولياء شعارها، وأمضى في الاعداء شفارها، وجمع عليها الدين وكان أديانا، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا».

ومن كتاب آخر: « لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلا وعد كان العقد بينه وبين نور الدين رحمه الله في أن يتجاوزا طرفي الغزاة من مصر والشام المملوك بعسكري بره وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره، فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما، وحدثت بعد الأمور أمور اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكمت الآراء الفاسدة، وفورقت المحاج القاصده، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين، والكفار محمولة إليها جزى المسلمين، والأمراء الذين كانوا للاسلام قواعد، وكانت سيوفهم للنصر موارد، يشكون ضيق حلقات الإسار، وتطرق الكفار بالبناء في الحدود الاسلامية، ولا خفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الاقطار وسيروا الصليب، ومن كسى مذابحهم بقمامه، وهذدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة، وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يصورونه ممن يسموهم القديسين، وقالوا: إن وقعت أو وقعت فيما لا يستدرك فارطه وإن كلا من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الالمان وملوك ما وراء البحر وأصحاب الجزائر كالبندقية والبشانية والجنوية وغيرهم قد تاهبوا بالعمائر البحرية، والاساطيل القوية،

وللاسلام بأمر المؤمنين أعز ناصر لا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر
حقاً، وهو يعبد خالقاً، وهم يعبدون خلقاً».

فصل

قال العماد: وكنت بالموصل فسئلت نظم مرثية في نور الدين، فنظمت
بعد عودي إلى دمشق في رجب:

الدين في ظلم لغيبة نوره
والدهر في غمم لفقده أميره
فليندب الاسلام حامي أهله
والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار في اخطاره
إذ كان هذا الخطب في مقدوره
ما أكثر المتأسفين لفقده من
قرت نواظرهم بفقده نظيره
ما أغوص الانسان في نسيانه
أو ما كفاه الموت في تذكيره
من للمساجد والمدارس بانها
لله طوعاً وعن خلوص ضميره
من ينصر الاسلام في غزواته
فلقد أصيب بركننه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها
من للهدى يبغي فكاً أسيره
من للخطوب منذلاً لجمها
من للزمان مسهلاً لوعوره
من كاشف للمعضلات برأيه
من مشرق في السدا جيئات بنوره

من للكريم ومن لنعش عثاره
من لليثيم ومن لجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها
من للجهاد ومن لحفظ أموره
يرواحه في غدوه وبكوره
من للعلي وعهودها من للندي
ووفوده من للحجى ووفوره
ما كنت أحسب نوردين محمد
يخبو وويلل الشرك في ديجوره
أعزز علي بليث غاب للهدى
يخلصو الشرام من زوره وزئيره
أعزز علي بأن آراه مغيباً
عن محفل متشرف بحضوره
لهفي على تلك الأنامل إنها
مدغيبت غاض الندى ببجوره
ولقد أتى من كنت تجري رسمه
فضع العلامة منك في منشوره
ولقد أتى من كنت تكشف كربه
فارفع ظلامته بنصر عشيره
ولقد أتى من كنت تؤمن سربه
وقع له بالأمن من محذوره
ولقد أتى من كنت تؤثر كربه
فأدم له التقريب في تقريره
والجيش قدر كعب الغداة لعرضه
فاركب لتبصره أو ان عبوره
أنت الذي أحيت شرع محمد
وقضيت بعد وفاته بنشوره

كم قد أمرت بحفر خندق معقل
حتى سكنت اللحد في محفوره
كم قيصر للروم رميت بقصره
ارواء بيض الهند من تاموره
أوتيت فتح حصونه وملكت عقر
بلاده وسبيت أهل قصوره
أزهدت في دار الفناء وأهلها
ورغبت في الخلد المقيم وحوره
أوما وعدت القدس أنك منجز
ميعاده في فتحه وطهوره
فمتى تجير القدس من دنس العدى
وتقدس الرحمن في تطهيره
يا حاملين سريره مهلاً فمن
عجب نهوضكم بحمل ثبيره
يا عابرين بنعشه انشقتم
من صالح الأعمال نشر عبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه
مستجمعين على شفير حفيره
ومن الجفاء له مقامى بعده
هلا وفيت وسرت عند مسيره
حياك معتل الصبا بنسيمه
وسقاك منهل الخيا بدروره
ولبست رضوان المهيم من ساجبا
أذبال سندس خزه وحريره
وسكنت عليين في فردوسه
حلف المسرة ظافراً بأجوره

قال العماد: وجاء نجاب إلى الموصل وذكر أنه فارق صلاح الدين
بقرب دمشق بالكسوة، وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الخطوة،

متى تجذّالري بالقـرـيتين
خوامص أثـر فيها الهـجير
ونحو الجليـجل أزجي المطـي
لقد جـل هـذا المرام الخـطير
تراني أنيـخ بأدنـى ضمير
مطايا براها الـوجـا والضمـور
وعند القـطيفة والمـشتهاة
قطوف بها الـلأمانـي سفـور
ومنـها بـكـوري نحو القصير
ومنية عمـري ذاك البـكـور
ويطـيب بشراي من جـلق
إذا جاءني بـالنجـاح البـشير
ويستبشـر الأصدقاء الكـرام
هـنالك بي وتوفى النـذور
تـرى بـالسلامة يومـا يكون
ببـاب السلامـة منـي عبـور
وإن جـوازي ببـاب الصغـير
لعمري من العـمر حظ كـبير
وما جنة الخـلد إلا دـمشق
وفي القلب شـوق إليـه ساعـير
ميادينها الخـضر فيـح الرـحـاب
وسلسالها العـذب صاف نمير
وجامعها الرـحـب والقبة الـ
منيفة والفلك المستدير
وفي قبـة النـسـر لي سـادة
بهم للمكـارم أفـق منير
وباب الفراديس فرـدوسها
وسكانها أحسن الناس حـور

والارزه فالسهم فالنير بيان
فجنات مزتها فالكف دور
كان الجواسق مأهولة
بـروج تطلع منها البـدور
بنير بها تستبير الهموم
بـربوتها يترى السرور
وما غرّ في الربوة العاشق
بين بالحسن إلا الريب الغرير
وعند المغارة يوم الخميس
أغار على القلب منسي مغير
وعند المنيع عين الحياة
مدى الدهر نابغة ما تغور
بعسر ابن شواش ثم السكون
لنفسى بنفسى تلك الجسور
وما أنس لا أنس أنس العبور
على جسر جسر يـن إني جسور
وكم بت الهوبة قرب الحبيب
في بيت لهما ونام الغيور
فأين اغتباطي بالغوطتين
وتلك الليالي وتلك العصور
وأشجار سطر ابدت كالسطو
رئمة من البليغ البصير
وأين تأملت فلـك يدور
وعين تفـور وبحر يـمور
وأين نظرت نسيـم يـرق
وزهر يـرور وروض نضير
إلام القساوة باقاسيون
وبين السنن يتجلى سنير

ومنذ ثوى نور دين الاله
لم يبق للدين والشام نور
وللناس بالملك الناصر
صالح صلاح ونصر وخير
هو الشمس أفلاكه في البلاد
ومطلعته سرجه والسير
إذا ما سطا أو حبى واحتبى
فما الليث ما حاتم ماثير
بيوسف مصر وأيامه
تقر العيون وتشفى الصدور
ملككت فاسجح فما للبلاد
سواك مجير ومولى نصير
وفي معصم الملك للعز منى
كسوار ومنك على الدين سور
لك الله في كل ما تبغى
به بحق ظهير ونعم الظهير
أما المفسدون بمصر عصوك
وهذي ديارهم اليوم قور
أما الأدياء بها إذ نشطت
لابعادهم زال منك الفتور
ويوم الفرنج إذا ما القوك
عبوس برغمهم قمط رير
نهوضاً إلى القدس يشفى الغلي
للفتوح وماذا عسير
سل الله تسهيل صعب الخطو
بفهو على كل شيء قدير
إليك هجرت ملوك الزمان
فما لك والله فيهم نظير

وفجرك فيه القرى والقرآن
جميعاً وفجراً لجميع الفجور
وأنت تريق دماء الفرنج
وعندهم لا تراق الخمرور

فصل

في فتح بعلبك

قال العماد: ولما فرغ السلطان من حمص وحصنها سار إلى بعلبك
فتسلمها في رابع شهر رمضان

قال ابن أبي طي: وكان بها خادماً يقال له يمن، فلما شاهد كثرة
عساكر السلطان اضطرب في أمره وراسل من بحلب على جناح طائر،
فلم يرجع إليه منهم خبر فطلب الأمان، وسلم بعلبك إلى السلطان.

قال العماد: وهنأته بأبيات منها :
بفتوح عصرك يفخر الإسلام
وبنور نصرك تشرق الأيـام
وبفتح قلعة بعلبك تهذبست
هذي الممالك واستقام الشام
وبكى الحسود دما وثغر الثغر من
فرح بنصرك للهدي بسام
فتح تسنى في الصيام كأننا
شكر الأمانح الإله صيام
من ذارأي في الصوم عيد سعادة
حلت لنا والفتـر فيه حرام

أسدى صلاح الدين والدنيايدا
بنو الهاسوق الرجاء تقام
فتمل فتحك واقصد الفتح الذي
بحصوله لفتوحك الاتمام
دم للعلى حتى يدوم نظامها
واسلم يعزب نصرك الاسلام

قال: ولزمت خدمته أرحل برحيله، وأنزل بنزوله، وكنت ليلة عنده، وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقذ، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف، وإلى استحسانه مصروف، وقد استحسنت قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها، وإن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها على أن الشعراء المحدثين ما منهم إلا من نظم على رويها ووزنها، واستمد خصب خاطره من مزنها فمنهم المعري وابن أبي حصينة والأرجاني والصالح ابن رزيك، وقد أوردت جميعها في كتاب الخريدة ومطلع قصيدة المعري: (١٤٥)

«لن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا»

فنظمت في السلطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية منها:

عفا الله عنكم ما لكم أيها الرهط
قسطتم ومن قلب المحب لكم قسط
شرطتم لنا حفظ الوداد وختتم
خيانتكم ما هكذا الود والشرط
جعلتم فؤاد المستهام بكم لكم
محطاً فغنه ثقل همكم حطوا
ملكتم فأنكرتم قديم مودتي
كأن لم يكن في البين معرفة قسط

فدت مهجتي من لا يذم لمهجتي
إذا حاكمته وهو في الحكم مشتط
وما كنت أدري قبل سطوة طرفه
بان ضعيفاً فاتراً مثله يسطو
وأهيف لالاشفاق من ضعف خصره
يجل نطقاً ألقلوب به ربط
يلازم قلبي في الهوى القبض مثلياً
يلازم كف الناصر الملك البسط
مليك حوى الملك العقيم بضبطه
كريم ومالهمال في يده ضبط
إذا التمت أيدي الملوك فعنده
مدى الدهر إجلالاً له تلثم البسط
عناك طوعاً نيل مصر ودجلة الـ
عراق ودان الغرب والعجم والقبط
وللنيل شط ينتهي سبيه به
ونيلك للراجين نيل ولاشط
عدوك مثل الشمع في نار حقه
له عنق اصلاح فاسده القسط

وهي ثمانية وثمانون بيتاً، ولسعادة الأعمى قصيدة طائية في السلطان
سيأتي ذكرها.

قال العماد: ولما وصلت إلى السلطان ورغبت منه في الاحسان وجدته
لأمري مغفلاً، ولشغلي مهملاً، ثم عرفت أن حسادي قالوا له: متى
أعدت ديوان الكتابة إلى العماد وهو لا شك بمحل الوثوق والاعتماد،
وهذا منصب الأجل الفاضل، وهو عنده في أجل المنازل، ربما ضاق
صدره، وتشعث سره، فلما عرفت هذا المعنى، لجأت إلى الفضل الفاضلي
لأنه به يعني، فقام بأمرى، ونوّه بقدرى وأراح سرى وشدّ أزرى.